



وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة ابن خلدون - تيارت -

كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية

قسم العلوم الإنسانية

التخصص: تاريخ وحضارات المغرب الإسلامي

مذكرة لنيل شهادة الماستر في تاريخ المغرب الإسلامي وحضاراته

الموسومة بـ

مواقف دول المغرب الإسلامي من حروب الاسترداد

القرن 05/هـ 09/هـ الموافق لـ 11/15م

إشراف الأستاذ:

د. علي محمد

إعداد الطلبة:

➤ صافي نجات

➤ قوريشي سميرة

➤ متلة أسماء

اللجنة المناقشة

رئيسا

مناقشا

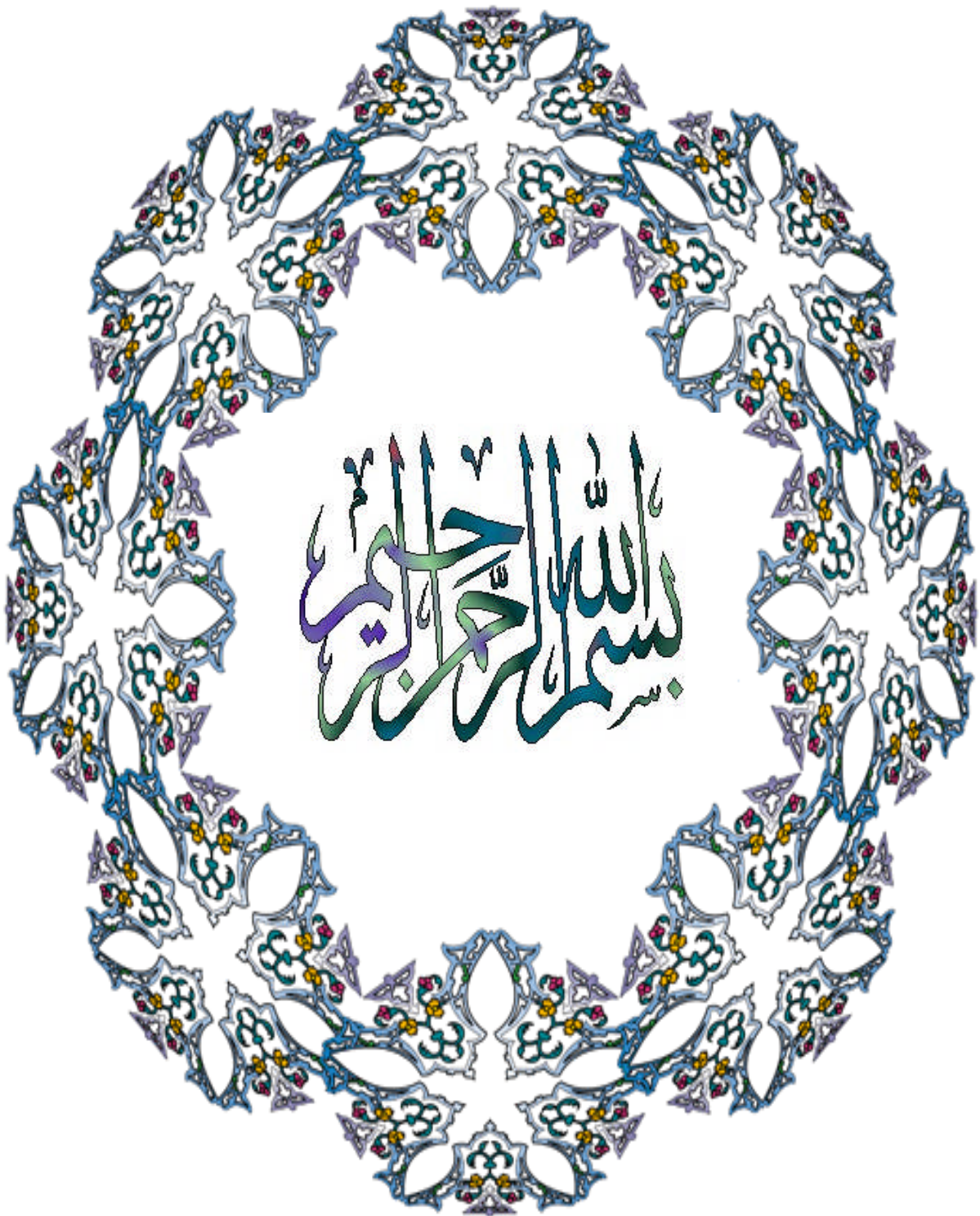
مشرفا

د. بوخاري عمر

أ. راية عمر

د. علي محمد

السنة الجامعية: 1438هـ/1439م - 2017م/2018م



شكر وعرfan

﴿قُلْ اَعْمَلُوا فَسَيَرَى اللّٰهُ عَمَلَكُمْ﴾ سورة التوبة، الآية: 105.

صدق الله العظيم

الحمد لله الذي وفقنا على إتمام هذا العمل ومن لم يشكر الناس لم يشكر الله. فتقدم بجزيل الشكر الأستاذ الفاضل "علي محمد" لتفضله

على الإشراف هذه المذكرة

والشكر موصول إلى الأساتذة الأفاضل أعضاء اللجنة الموقرة التي شرفتنا بمناقشة هذه المذكرة، ولا يفوتنا أن نتقدم بالشكر إلى عمال المكتبة

الجامعية بكلية العلوم الإنسانية والاجتماعية

وإلى كل من مد لنا يد العون والمساعدة في بحثنا من قريب أو من بعيد فلجميع من الله الثواب العظيم والأجر الجزيل والله لنا ولكم

التوفيق.

الهدايا

أهدي هذا العمل المتواضع إلى ملاكي في الحياة إلى معنى الحنان إلى من كان دعاءها سر

نجاحي أُمي الغالية أطال الله في عمرها

إلى الذي منحني كل ما يملك ... إلى الذي عجز اللسان في ذكر مآثره...

إلى من احمل اسمه بكل فخر إلى سندي وعوني وقُدوتي...

إلى نور دربي ومصدر فخري وسر نجاحي ... إلى روح أبي الطاهرة أسكنه الله فسيح جنانه...

إلى قرّة عيني أخي العزيز والغالي مراد وإلى من كان سنداً لي أخي بشير ومحمد

إلى نجوم أنارت حياتي أخواتي وأزواجهن

وإلى كتاكيت العائلة: إباد، ليندة، شرين، سيف الدين.

وصديقتي في العمل: صافي نجاة، قريشي سمية

وإلى كل رفيقاتي التي جمعت بيننا في يوم من الأيام روابط المحبة، جميلة، مليكة، نوال،

مسعودة، وخاصة من اعتبرتها أختي: حبيبة.

إلى كل هؤلاء أهدي ثمرة جهدي وفاءً وإخلاصاً

أسماء

السلامة

إلى أعز خلق الله سيدنا محمد صل الله عليه وسلم
إلى من كلله الله بالهبة والوقار، إلى كل من علمني العطاء بدون انتظار إلى روح أبي الطاهرة
راجية من المولى عز وجل أن يسكنه فردوسه الأعلى
إلى نبع المحبة والحنان ... إلى القلب الناصع
إلى صاحبة التضحيات والعطاء ... إليك أُمي العزيزة أطال الله في عمرها
إلى رياحين حياتي أخواتي كريمة وبناتها، وسعاد وزوجها محمد وإلى أصغرهن لدة، ودلوعة
كريمة
إلى الغالية جدتي أطال الله في عمرها
إلى إخوتي وزوجاتهم
إلى الروح التي سكنت روعي خالد وكل عائلته خاصة أخيه فيصل
وإلى كل الكتاكيت الصغار: آية الرحمن، يونس عبد الجليل، مريم سعاد، هاشم، سيد أحمد
وإلى من رافقتني في إنجاز هذا العمل: متلة أسماء
وإلى من جمعني بهم الجامعة في السراء والضراء: حبيبة، مريم، هنية، غنية صابرين، سميرة

تسوية

بجهد

أبي الغالي

إلى من جرع الكأس فارغا ليسقيني قطرة حب
إلى من كلت أنامله ليقدّم لنا لحظة سعادة
إلى من عصر الأشواك عن دربي ليمهد لي طريق لعلم

أبي الغالي "علي"

إلى من أرضعتني الحب والحنان

إلى رمز الحب وبلسم الشفاء

إلى القلب الناصع بالبياض

أمي الغالية "يمينّة"

إلى القلوب الطاهرة الرقيقة والنفوس البريئة إلى رياحين حياتي إخوتي "زينب، إبراهيم، محمد،

عمار، نجم الدين"

إلى روح البراءة التي سكنت بيتنا

"بهاء الدين، نهليل أريج الجنة"

إلى صديقتاتي: "أسماء، أسماء، أمينة، دنيا زاد، نجاة، نسرین، وداد"

إلى روح جدتي المرحومة "ثریا" اللهم ارحمها برحمتك الواسعة

أمميّة

مختارة

قائمة المختصرات

الرمز	معناه
هـ	التاريخ الهجري
م	التاريخ الميلادي
تح	تحقيق
تر	ترجمة
مر	مراجعة
تق	تقديم
ط	طبعة
د.ط	دون طبعة
د.ت	دون تاريخ النشر
د.ن	دون مكان
ج	الجزء
مج	مجلد
ص	صفحة
ع	عصر/عدد
ت	توفي
تع	تعلق

مقدمة

يكتسي التاريخ الأندلسي أهمية كبيرة في مسار حركة التاريخ الإسلامي في العصر الوسيط، لما يتميز به من صفحات مشرقة وأحداث بارزة، خاصة في القرن الخامس هجري الحادي عشر الميلادي، والذي يعتبر منعطفًا تاريخيًا بارزًا في تاريخ إسبانيا الإسلامية والنصرانية على حد سواء، فقد شهدت الأندلس الإسلامية انهيار الخلافة الأموية وتصدع وحدتها وقد تلى ذلك تمزق سياسي ونشوء ما يسمى بعصر ملوك الطوائف، حيث بلغ عدد الإمارات حوالي واحد وعشرون إمارة، بينما كانت الممالك النصرانية تحاول جاهدة الإجهاز على هذه الإمارات فيما يعرف بحروب الاسترداد.

وهذا الصراع لم يكن بارزًا في البداية لأن الغلبة كانت للمسلمين لكن ومع مرور الزمن تفاقم الصراع إلى حد استيلاء النصارى على أهم ثغور الأندلس وهي طليطلة والتي بسقوطها بدأت تظهر ملامح سقوط الأندلس كلها.

أدى اختلال ميزان القوة لصالح الممالك النصرانية الإسبانية، إلى خضوع ملوك الطوائف حتى أصبحوا أداة طيعة في يد ملوك إسبانيا، يؤدون لهم الضرائب ويدينون لهم بالولاء والطاعة والخضوع. زاد الخطر النصراني وبلغ التسلط حده حتى وصل بهم الأمر إلى الرغبة في القضاء نهائيًا على التواجد الإسلامي بالأندلس، فما كان لموك الطوائف إلا أن يبحثوا عن وسيلة للخلاص من هذا الخطر المحدق بهم والذي جعلهم خاضعين في بلادهم بعدما كانوا أسيادا فيها.

ومن هنا تبرز أهمية موضوع موقف دول المغرب الإسلامي من حروب الاسترداد خلال القرن الخامس الهجري، الحادي عشر الميلادي، فهو يكشف لنا عن مواضع القوة والضعف بين الأندلس الإسلامية، وإسبانيا النصرانية، وعن ردود فعل دول الضفة المقابلة وكيفية مساندتها لها.

ومن بين أهم الدوافع لاختيارنا هذا الموضوع، هي محاولة الكشف عن الظروف والملابسات التاريخية التي أحاطت بظهور حروب الاسترداد وانعكاساتها على الأندلس، وما موقف دول المغرب الإسلامي من ذلك، إضافة إلى رغبتنا في التأصيل التاريخي لهذا الموضوع ولتحقيق الهدف العلمي الأكاديمي، للبحث طرحنا الإشكالية التالية:

✓ فيما تمثل موقف دول المغرب الإسلامي خلال حروب الاسترداد؟ وما الدافع الأساسي من وراء ذلك؟.

ولمناقشة هذه الإشكالية وجب علينا الإجابة على عدة تساؤلات فرعية أهمها:

ما هي الدوافع الحقيقية التي جعلت ممالك الطوائف في الأندلس تتقرب من الممالك النصرانية في الشمال؟ هل كان ذلك بحكم العامل الجغرافي؟ أم بحكم الأوضاع الداخلية التي ميزت كل منهما؟ ما هي الظروف التي جعلت ملوك الطوائف يستنجدون بالمرابطين وهل يمكن اعتبار سياسة ملوك الطوائف سببا في ما آلت إليه الأندلس من تشتت؟.

ومن أجل بلوغ الغاية المرجوة من هذه الدراسة اتبعنا المنهج التاريخي التحليلي، الذي يجمع بين عرض الحقائق بعد تمحيصها واستنتاجها ثم جمع المعلومات من المصادر واستقراء ما جاء فيها، وتحليلها دون الإخلال بالمعلومات التاريخية، ومراعاة الأمانة العلمية.

وكأي دراسة لموضوع من المواضيع استلزم علينا وضع خطة واضحة تكون كبنية أساسية للموضوع مكونة من مقدمة، مدخل، ثلاث فصول وخاتمة وملاحق مدعمة للموضوع. مدخل: تطرقنا فيه إلى مفهوم حركة الاسترداد ونهاية الدولة الأموية ثم ظهور ملوك الطوائف وتلبيتها دوافع حروب الاسترداد.

الفصل الأول: بعنوان مراحل الحروب الاسترداد، ويندرج تحته مبحثين، الأول بعنوان استنجد الأندلس بالمرابطين وتطرقنا فيه إلى حال الأندلس قبل تدخل المرابطين، ثم جوازهم إلى الأندلس وما أسفر عنه من أحداث غيرت في مجرى التاريخ الأندلسي، ألا وهي معركة زلاقة ومعركة الليط، أما المبحث الثاني فكان بعنوان استنجد الأندلس بالموحدين ذكرنا فيه الأندلس في ظل الموحدين ومعركة الأرك وحصن العقاب.

الفصل الثاني: فكان بعنوان حروب الاسترداد في عهد بني الأحمر وهو الآخر اندرج تحته مبحثين، المبحث الأول الأوضاع السياسية لدولة بني الأحمر، تطرقنا فيه إلى صراع بني الأحمر مع بني هود وتأسيس دولة بني الأحمر، ونبذة عن الممالك النصرانية، وفيما يخص المبحث الثاني فقد جاء

بعنوان رد فعل دول المغرب الإسلامي من حروب الاسترداد، عرضنا من خلالها موقف كل من الدولة المرينية، الزيانية والحفصية.

والفصل الثالث والأخير نتائج حروب الاسترداد تحت مبحثين، المبحث الأول سقوط غرناطة ونتائجها تطرقنا فيه إلى الأسباب الداخلية والخارجية، والمبحث الثاني نهاية الحكم الإسلامي والوجود السياسي بالأندلس تطرقنا فيه إلى حصار مملكة غرناطة وتسليمها ونتائجها.

وأخينا هذه الفصول بخاتمة عرضنا فيها حوصلة شاملة استنتاجية لمضمونه من خلال رسمنا لمعالجة التي أعطتنا صورة مبسطة وجامعة، ولتدعيم هذه الدراسة ألحقناها بملاحق حاولنا من خلالها إبراز ما وجدناه قد يثقل البحث وبغية الإحاطة بجوانب موضوع البحث الأساسي، كان لزاما علينا الرجوع إلى المصادر والمرجع التي تعالج قضية حروب الاسترداد، سواء تلك المتخصصة أو التي لها علاقة غير مباشرة.

الإحاطة في أخبار غرناطة، لسان الدين بن الخطيب (717-776/1313-1374) المؤرخ والوزير الغرناطي، الشهير وهو من المصادر الهامة التي لا غنى عنها في دراسة تاريخ الأندلس بصفة عامة والغرناطي بصفة خاصة، لاسيما وأن صاحبه كان مشاركا في الحياة السياسية بالأندلس، والذي أفادنا تقريبا من بداية بحثنا حتى نهايته حيث أفادنا وفي تعريف الشخصيات والأماكن.

كتاب أعمال الأعلام فيمن بويغ قبل الاحتلام من ملوك الإسلام وما يجر ذلك من شجون الكلام لنفس المؤلف (ابن الخطيب)، عظيمة الفائدة اعتمدنا بشكل أساسي على الجزء الخاص بتاريخ الأندلس الذي نشره المسترق الفرنسي ليفي بروفنسال سنة 1934م، وأعدت مكتبة الثقافة الدينية نشره مصورا عن طبعة الأولى، ويتضمن الكتاب الكثير من التفاصيل الدقيقة المتعلقة بالأوضاع الداخلية والخارجية لممالك الطوائف خلال القرن (5هـ/11م) والسياسة التي انتهجها هذه الممالك نحو إسبانيا النصرانية، كما ينفرد كتاب أعمال الأعلام، بين المصادر العربية باحثو باحتوائه على مختصر لتاريخ الممالك النصرانية الإسبانية مثل قشتالة وأراغون والبرتغال.

الحلل الموشية في الأخبار المراكشية لمؤلف مجهول لا نعرف شيئا عن المؤلف هذا الكتاب، وقد نسب خطأ لابن الخطيب، مع أنه ليس هنا ما يثبت ذلك، لكننا نعلم أن مؤلف الحلل أندلسي، ألفه في غرناطة، وكان معاصرا لابن الخطيب، وهذا الكتاب يقدم لنا معلومات وافرة عن الصراع بين المسلمين والنصارى الإسبان في الفترة التي سبقت التدخل المرابطي في الأندلس، والأحداث التي صاحبت عبورهم إلى هناك ويركز بشكل واضح على المراسلات التي تمت بين الطوائف أو المرابطين مع ألفونسو السادس ملك قشتالة وأيضا أفادنا في تعريف الأماكن.

العبر وديوان المبتدأ أو الخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر عبد الرحمن بن خلدون (732-808هـ/1332-1406م)، وهو من المصادر المهمة والتي أفادتنا كثيرا، وخاصة وأن صاحبه كانت له أدوارا هامة في الشؤون السياسية في الأندلس، وهو كتاب في سبعة أجزاء استفدنا بصفة أساسية على الأجزاء منها، الرابع والسادس والسابع.

كتاب التبيان عن الحادثة الكائنة بدولة بني زيري في غرناطة أمير عبد الله بن بلكين بن زيري أمير "غرناطة وأحد ملوك الطوائف (حكم ما بين 465-483هـ/1072-1090)"، وللكتاب فائدة عظيمة ليس لأن مؤلفه عاش في القرن الخامس الهجري فقط بل لأنه شارك في الكثير من الأحداث البارزة آنذاك، ويركز أيضا على علاقات دول الطوائف مع الممالك النصرانية في شمال إسبانيا والسياسات التي انتهجتها الطرفان لتحقيق ممالكهما.

كتاب نبذة العصر في أخبار ملوك بني نصر مؤلف مجهول"، تسليم غرناطة ونزوح الأندلسيين إلى المغرب"، وهو من المصادر الأساسية والمهمة، ولاسيما وأن صاحبه على ما يبدو وجندي غرناطي حضر وحاض العديد من المعارك ضد النصارى، فكان شاهدا على انهيار الكثير من الحصون والقلاع، وتسليم غرناطة وتروح الأندلسيين تجاه بلاد المغرب، واعتمدنا عليه خصوصا غرناطة وتسليمها.

كتاب الاكتفاء في أخبار الخلفاء ابن الكردبوس النوزوري، ومعلوماتنا عن صاحب هذا الكتاب قليلة جدا، وكل ما هو معروف عنه أنه عاش في مدينة توزر التونسية، فلا يزال معظمه

محفوظا أما كتاب الاكتفاء فلا يزال معظمه محفوظا، نشره أحمد المختار عبادي، الجزء الأندلسي منه في صحيفة معهد الدراسات الأندلسية الإسلامية في مدريد، ونقل لنا هذا الكتاب مادة خصبة حول علاقات ملوك الطوائف بالنصارى الإسبان، تمتاز في مجمله بالدقة وعمق النظر، بل إنه كثيرا ما يأتي تمتاز في مجله بالدقة وعمق النظر، بل أنه كثيرا ما يأتي بمعلومات جديدة لا نجدها في المصادر التاريخية الأخرى، وفيما المراجع نذكر:

دولة الإسلام في الأندلس محمد عبد الله عنان، وهو كتاب ضخمة اعتمد فيه صاحب الكتاب على مختلف المصادر الإسلامية المطبوعة، كما استند في كتابه إلى العديد من المصادر الأجنبية، وأفادنا هذا الكتاب في جل بحثنا تقريبا.

كتاب تاريخ المسلمين في الأندلس رينهارت دوزي المؤرخ حيث رجعنا إلى الجزء الثالث وقد تضمن هذا الكتاب الكثير من المعلومات التاريخية الدقيقة خصوصا وأن معرفة دوزي باللغة العربية سمحت له بالاطلاع على مختلف المصادر الإسلامية الأندلسية وتوظيفها في إخراج هذا الكتاب الذي يعتبر أول دراسة جادة لعصر ملوك الطوائف في الأندلس.

كتابه العلاقات بين الأندلس الإسلامية وإسبانيا النصرانية في عصر بني أمية وملوك الطوائف محمد رجب عبد الحليم، رغم أن الكتاب في أصله دراسة أكاديمية، حيث أفادنا في معرفة بعض الأحداث البارزة في علاقات المعتمد بن عباد بالملك ألفونسو السادس، كحادثة مقتل بن شالب اليهودي وغيرها من القضايا.

وكأي بحث لا يخلو من صعوبات وهي في الحقيقة متعلقة بصعوبة جمع المعلومات من المصادر المتفرعة وتنسيق الأفكار وربطها ببعضها البعض، فقد كان بودنا أن نقدم بحث أكثر إثراء وتعمقا.

مدخل

مفهوم حركة الاسترداد ودوافعها

1- مفهوم حركة الاسترداد

2- نهاية الدولة الأموية وظهور ملوك الطوائف

3- دوافع حرب الاسترداد

1- مفهوم حركة الاسترداد

مثل الوجود العربي الإسلامي في الأندلس امتدادا لحركة الفتح الإسلامي التي انطلقت من شبه الجزيرة العربية، ونجح المسلمون في السيطرة على معظم نواحي شبه الجزيرة الأيبيرية، فأقاموا بها مدة تقارب ثمانية قرون، إلى أن اضطروا إلى إخلائها كليا في أواخر القرن التاسع هجري، الخامس عشر ميلادي (897هـ/1492م)، عقب نجاح ما يسمى بحرب أو حركة الاسترداد¹ la reconquista وهي ترجمة حرفية للمصطلح الإسباني الريكونيستا².

وتعرف أيضا بكلمة "الاسترجاع" لأنها ذات مدلول تاريخي خاص في تاريخ الأندلس الإسلامي، حيث عمل الإسبان منذ الفتح الإسلامي على استرجاع الأراضي الإسبانية التي فتحها المسلمون³.

2- نهاية الدولة الأموية وظهور ملوك الطوائف.

استطاع عبد الرحمن الناصر أن يؤسس إمارة أموية في الأندلس سنة 316هـ/929م عندما أعلنها عبد الرحمن الناصر، الذي اشتهر بالحزم والذكاء والعدل، والعقل والشجاعة وحبه للإصلاح وحرص عليه.

ووحّد الأندلس بالقوة والسياسة وأعاد وحدتها وقوتها ومكانتها.

¹ - مفهوم حركة الاسترداد: هي حروب شنتها الممالك المسيحية، لإخراج مسلمي الأندلس من شبه الجزيرة الأيبيرية، وسمية بهذا الاسم لأنها كانت تهدف إلى استرداد الأندلس من العرب، وقد بدأت هذه الحرب مع بداية ضعف الأندلس وكانت هذه الحرب تشتد حيناً وتخمد حيناً آخر. حسب الظروف السياسية للأندلس المسلمة، وبعد شائخة الكبير باعث حركة الاسترداد، استمرت في عهد ولده فيرناند الأول، وتعثرت بعد وفاته بسبب انقسام دولته بين أبنائه ولكنها قوية مع ابنه أفونسو السادس، ثم استمرت في آل بيته حتى كتب لهم الفوز، فطردوا المسلمين نهائياً من شبه الجزيرة، ينظر: حسن أحمد محمود، قيام دولة المرابطين، صفحة مشرقة من تاريخ المغرب في العصور الوسطى، دار الفكر العربي، القاهرة، د.ت، د.ط، ص 251.

² - عبد المحسن طه رمضان، الحروب الصليبية في الأندلس، مكتبة الأنبار المصرية، القاهرة، 2001، د.ط، ص 16.

³ - محمد العمروسي المطوي، الحروب الصليبية في المشرق والمغرب، دار الغرب الإسلامي، بيروت، د.ت، ط2، ص 241.

وكان سبب إعلانه الخلافة في الأندلس ضعف الخلافة العباسية، وظهور الدولة العبيدية في الشمال الإفريقي، فأعلن الخلافة، وتلقب بأمر المؤمنين الناصر لدين الله¹.
وفي عام 422هـ/1009م بدأ ظهور عصر الطوائف في الأندلس، الذي دام حتى عام 484هـ/1091م².

سقطت الخلافة في الأندلس بعد أن أصبحت غير قادرة على تكوين جيش ينقذ الدولة ويقضي على كل الثورات والفتن الداخلية³، فلقد غاب الأمن والاستقرار بسبب الصراع على الخلافة، حتى أطل القرن الخامس هجري الحادي عشر ميلادي حاملا معه بوادر الفرقة والتلاشي، فقد كان منظرها - الأندلس - مروعا ومخزنا، فبعدها كانت ملتئمة في عقد قرطبة غدت حبات متفرقة حائرة⁴. نتج عن سقوط الخلافة الأموية تفكك الأندلس إلى دويلات صغيرة ومنازعة⁵، يتقاتلون طمعا، ويعلنون الحرب⁶، يقول ابن خطيب "ليس لأحدهم في الخلافة إرث، ولا في الإمارة سبب، ولا في الفروسية نسب ولا في شروط الإمامة مكتسب"، أي أن ليس لديهم الخبرة والأحقية في تولي أمور الدولة⁷.

¹ - أحمد مختار العبادي، في تاريخ المغرب والأندلس، دار النهضة العربية، بيروت، 1978، د.ط، ص ص 168-170.

² - علي محمد الصلابي، الجوهر الثمين بمعرفة دولة المرابطين، دار التوزيع والنشر الإسلامية، مصر، القاهرة، 2004م/1424هـ، ط1، ص ص 73-74.

³ - المرجع نفسه، ص 74.

⁴ - محمد عبد الله عنان، دولة الإسلام في الأندلس، العصر الثاني، دول الطوائف منذ قيامها حتى الفتح المرابطي، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1417هـ/1997م، ط4، ص 12.

⁵ - أحمد مختار العبادي، صورة في حياة الحروب والجهاد في الأندلس، منشأة المعارف، الإسكندرية، 2000م، د.ط، ص 93.

⁶ - الطاهر أحمد المكي، دراسات أندلسية في الأدب والتاريخ والفلسفة، دار المعارف، القاهرة، 1987م، ط3، ص 51.

⁷ - لسان الدين ابن الخطيب، أعمال الأعلام في من بويغ قبل الاحتلام من ملوك الإسلام، تح: ليفي بروفنسال، دار المكشوف، بيروت، لبنان، 1956م، ط8، ج2، ص 144.

- ويقول ابن الأثير: "أن ذلك أضر شيء على المسلمين، حيث تغلب في كل جهة منها متغلب، وضبط كل متغلب منهم ما تغلب عليه، فركبهم الغرور¹ .
- وتكونت من هذه الدويلات العديدة أربع دول رئيسية:
- (1)- في جنوب الأندلس، حكم الأدارسة أو بنو حمود أصحاب مالقة²، وحالفهم أمير غرناطة، وقرمونة والبيرة وجيان وأستجة.
- فضلا عن حكمهم مليلة وطنجة وسبتة³ في شمال المغرب.
- (2)- بنو عباد أمراء إشبيلية⁴، أقوى ملوك الطوائف، ومن حالفهم بنو جهور بقرطبة، وبنو الألفس أصحاب بطليوس⁵ في جنوب وغرب الأندلس.
- (3)- بنو ذى نون أمراء طليطة⁶ الذين حكموا أوساط اسبانية، والذي وقفوا في وجه بني عباد، وكلفهم ذلك دفع الجزية لملك قشتالة النصراني التماسا لعونه ضد خصومهم.

¹ - ابن الأثير: أبو الحسن ابن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد، الكامل في تاريخ، مر: محمد يوسف الدقاق، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1987، ط7، مج: 03، ص 107.

² - مالقة: هي مدينة معروفة وتعتبر الآن من مشاهير مدن اسبانيا الساحلية أسسها الفنيقيون وأعطوها اسم مالكو ومعناه المملح وذلك نسبة إلى مستودعات الأسماك المملحة، ينظر: ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ص 241/ مؤلف مجهول، الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، تح: سهيل زكار عبد القادر زمامة، دار الرشاد الحديثة، دار البيضاء، 1399هـ/1979م، ط1، ص 52.

³ - سبتة: هي مدينة معروفة بالمغرب وهي الآن تحت الاحتلال الإسباني ومنها كان يتم الجواز إلى الأندلس لأنها تقع قبالة مرسى الجزيرة الخضراء، ولها بتاريخ المغرب ماضي حافل بالعلوم والمعارف وإليها ينسب عدة أعلام، ينظر: مؤلف مجهول، كتاب الحلل الموشية، ص 51.

⁴ - إشبيلية: مدينة كبيرة عامرة ذات أسوار عظيمة وأسواق كثيرة وأهلها مياسير وجل تجارهم الزيت، يجتمع عندهم من الشرق مسافة 40 ميل كلها تمشي في ظل شجر الزيتون، ينظر: الشريف الإدريسي، نزهة المشتاق في احتراق الأفاق، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 1994، د.ط، ج2، ص 541.

⁵ - بطليوس: هي من مدن غرب الأندلس وهي الآن قرب الأراضي البرتغالية، ينظر: مؤلف مجهول، الحلل الموشية، ص 52.

⁶ - طليطة: تعتبر ذات مساحة واسعة وشاسعة فهي تمتد شرقي مملكة بطليوس (الشر الأذن)، من قورية وترجالة نحو شمال الشرقي، حتى قلعة أيوب وشتتمرية الشرق، وتمثل الجنوب الغربي لمملكة بني هود وتمتد جنوب إلى غرب حتى حدود مملكة قرطبة، وتمتد شمال إلى شرق فيها وراء نهر تاجة ومتاخمة لحدود مملكة قشتالة، ينظر: محمد عبد الله عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ص 328.

4- بنو عامر في بلنسية ومرسية الذين حكموا في شرقي الأندلس، وطبقا لظروفهم، فقد كانوا يحالفون الأدارسة تارة أو بني عباد، أو بني ذى النون تارة أخرى. بسط بنو عامر نفوذهم على الثغور الممتدة من مربة حتى مصب نهر أبرة سنة 1051م¹.

يعد عصر ملوك الطوائف بالأندلس من أهم عصور هذه البلاد،² حيث تفرق شملهم إلى دول متناحرة فيما بينها، وأصبح التاريخ الأندلسي مطبوعا بصراعات بين ملوك الطوائف، ضف إلى ذلك تدخل الملوك المسيحيين في الشؤون الداخلية للأندلس أكثر فأكثر، مما زاد الأمر خطورة الضعف العسكري الذي أصبحت تعاني منه ملوك الطوائف على عكس المماليك المسيحية، التي استغلت هذه الظروف وعبدوا الطريق أمام حركة الاسترداد التي أدت إلى سقوط أهم دويلات الطوائف وهي (طليطلة)³ عاصمة القوط القديمة، قبل الفتح العربي الإسلامي للأندلس بيد ألفونسو السادس ملك قشتالة في مستهل صفر 478هـ/25 أيار 1085⁴، وبذلك استرجع النصارى عاصمة القوط الأولى بعد خضوعها للسيادة الإسلامية حوالي أربعة قرون⁵.

إن عظمت الفتوحات الإسلامية قد حملت في طياتها حقد في نفوس النصارى للإسلام، أكثر مما يحملهم على الإعجاب والخوف منه، ولهذا فإنهم كانوا يحترقون شوقا إلى اليوم الذي يستطيعون فيه رد الفعل وأخذ بالثأر⁶، واسترجاع اسبانيا إلى الحضيرة النصرانية من جهة، وإلى محاربة الإسلام والقضاء عليه من جهة أخرى⁷.

¹ - علي محمد الصلابي، المرجع السابق، ص 74.

² - عيسى الحسن، تاريخ العرب من بداية الحروب الصليبية إلى نهاية الدولة العثمانية، دار الأهلية للنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، 2011، ط2، ص 316.

³ - ليفي بروفنسال، ألفونسو السادس والاستيلاء على طليطلة سنة 1085م، ضمن كتابه الإسلام في المغرب والأندلس، ترجمة: السيد محمود عبد العزيز سالم، د.ت، د.ط، ص 120.

⁴ - عصام محمد شبارو، الأندلس من الفتح العربي المرصود إلى الفردوس المفقود (91-897هـ/710-1492م)، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان، 2002، ط1، ص 300.

⁵ - عيسى الحسن، المرجع السابق، ص 317.

⁶ - محمد العمروسي المطوي، المرجع السابق، ص 29.

⁷ - عيسى الحسن، المرجع السابق، ص 312.

3- دوافع حرب الاسترداد:

يتضح من خلال تعريفنا لحركة الاسترداد، أن هذه الحركة حركتها بواعث حقيقية وأسباب قوية¹، تتمثل في تحقيق أهداف الكنيسة التي كانت البابوية قد بلورتها من خلال نزاعها مع الإمبراطورية وهي أهداف كانت تتركز أساساً حول السياسة المطلقة للبابا على العالم المسيحي.

أ) الدافع الديني:

لقد كانت للكنيسة الإسبانية وزن في حساب عوامل قوة في شمال الأندلس حيث تطور موقف البابوية وازداد تدخلها في شؤون إسبانيا الدينية، ومساعدتها في حربها ضد مسلمي الأندلس، ومن المشكوك فيه أنه كانت توجد علاقة قوية بين النصارى وكرسي الرسول بعد سقوط إسبانيا في يد موسى بن نصير، وحتى بداية القرن الخامس هجري، إذا انشغلت البابوية في روما بصراعها على السلطة الزمنية مع ملوك أوروبا، وانشغل الإسبان في صراعهم مع مسلمي الأندلس لكن ذلك تغير كله في القرن الخامس هجري، إذ أن شاذجة الكبير ملك نبرة وصاحب الكلمة على شمال إسبانيا كله، أعاد فتح غربي شبه الجزيرة للتأثيرات الأوروبية².

واستخدم ملوك إسبانيا النصرانية الكنيسة في تدعيم هيبتهم وإقرار نفوذهم على رعايتهم، كذلك استخدمها في صراعهم ضد بعضهم البعض، وفي صراعهم ضد المسلمين³.

كانت ظروف الحرب المستمرة بين النصارى والمسلمين في إسبانيا، قد حملت رجال الدين على أن ينزلوا هذا الميدان، شأنهم في ذلك شأن الأشراف والكونتات، وكانوا يدعون عند الحرب إلى مرافقة الجيش، ولم يكن أحد من أفراد الشعب ورجال الدين يحظى بالتقدير والاحترام إلا إذا أبدى

¹ - عاشور سعيد عبد الفتاح، تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان، 2003م/1424هـ، ط2، ص 17.

² - محمد عبد الله عنان، المرجع السابق، ص 387.

³ - رجب محمد عبد الحليم، العلاقات بين الأندلس الإسلامية وإسبانيا النصرانية في عصر بني أمية وملوك الطوائف، دار الكتب المصرية، ودار الكتاب اللبناني، بيروت، د.ت، د.ط، ص 328.

شجاعة في محاربة أعداء البلاد والدين من المسلمين، لذلك جندت الكنيسة نفسها لخدمة هذا الهدف والذي كانت تسعى إليه البابوية والملكية الإسبانية وجماهير الشعب الإسباني. ومن ثم يكن اعتبار الكنيسة الإسبانية كنيسة لها وضعها الخاص، فهي كنيسة محاربة تخدم في ميدان القتال كما تخدم في ميدان الدعوة المسيحية¹.

وخلاصة القول أن الكنيسة الكاثوليكية في الغرب كان لها دور فعال في توجيه الحركة الصليبية وفي السيطرة عليها باسم الدين، فهي التي دعت عليها وأمدتها بتأييدها المادي والمعنوي، وهي التي شجعت المحاربين من كافة الفئات والأجناس على الاشتراك فيها، مقدمة كافة التسهيلات اللازمة لكل من يحمل الصليب، وهي التي سمحت للجماعات الرهبانية العسكرية القيام بالدور الموكل إليها في الأراضي المقدسة، وأخيراً كان يمثلها في كل حملة صليبية مندوب بابوي يعين من قبلها².

ب) الدافع السياسي:

إن تحدثنا عن العامل السياسي الذي ساهم في استفحال حركة الاسترداد، فيمكن إدراجه ضمن إزدياد قوة الملكية في القرن الخامس هجري، الحادي عشر ميلادي، من أن ممالك إسبانيا النصرانية أصبحت تحكمها أسرة واحدة وهي أسرة شانجة الكبير ملك نبرة، بعدما كانت تحكمها ثلاث أسر منفصلة، واحدة في نبرة والثانية في قشتالة والثالثة في ليون، بالإضافة إلى برشلونة التي كان يحكمها آل برنجر.

استطاعت هذه الأسرة أن توحد الممالك النصرانية، للعمل وفق مبدأ التوسع في الأراضي الأندلسية ومحاربة ملوك الطوائف³.

¹ - رجب محمد عبد الحليم، المرجع السابق، ص ص 328-329.

² - جوزيف نسيم يوسف، العرب والروم واللاتين في الحرب الصليبية الأولى، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، 1981، ط2، ص 68.

³ - رجب محمد عبد الحليم، المرجع السابق، ص ص 319-320.

خاصة وأن ملوك الطوائف في هذه الفترة كانوا في حالة صراع وانقسام وهذا ما أمكن المماليك النصرانية من فرض سيطرتها عليهم وإجبارهم دفع الجزية¹.
وليس معنى أن أسرة شانجة الكبير وأولاده وأحفاده الذين حكموا المماليك الإسبانية طوال ذلك القرن لم تقع بينهم خلافات أو حروب، وهم بذلك لا يختلفون كثيرا عن ملوك الطوائف في صراعهم وأحقادهم، لكن صراعات هؤلاء النصارى كانت صراعات أسرية، معظمها إن لم تكن كلها بسبب النزاع حول العرش والسلطان فكانت تنشب الحرب بين الإخوة بسبب ذلك، لكنها لا تلبث أن تنتهي بهزيمة أحد الطرفين واستسلامه لأخيه ودخوله في طاعته أو بقتله أو بنفيه، وعلى أي حال كانت الأمور تعود إلى مجاريها، وتعود معها الوحدة والقوة والرغبة في استئناف حركة الاسترداد من جديد².

ج) العامل الاقتصادي:

إن حركة الاسترداد كانت بالضرورة تسعى إلى تحقيق أهداف الكنيسة التي كانت البابوية قد بلورتها من خلال نزاعها مع الإمبراطورية وهي أهداف كانت تتركز أساسا حول السيادة المطلقة للبابا على العالم المسيحي³.

كما أن هذه الحركة كانت من ناحية أخرى محاولة لتحقيق أهداف العلمانيين الذين خضعوا للتنظيم الإقطاعي، سواء كانوا من النبلاء وفرسانهم، أم من الفلاحين.
لقد كان الفرسان يتطلعون إلى توسيع سلطاتهم وأملاكهم. ولم يكن هذا ممكنا دون الاصطدام مع الملكية، وبينما كانت البابوية تحارب ضد الملكية من أجل السيادة كان النبلاء الإقطاعيون يتطلعون إلى بناء سلطتهم الإقليمية على حساب الملكية⁴.

¹ - محمد عبد الله عنان، المرجع السابق، ع2، ص 387.

² - يوسف أشباخ، تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين، ترجمه وعلق عليه محمد عبد الله عنان، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1417هـ/1996م، ط2، ج1، ص 15-16.

³ - قاسم عبده قاسم، ماهية الحروب الصليبية الإيديولوجية الدوافع النتائج، عين الدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، د.م، 2001، د.ط، ص 55-56.

⁴ - مفيد الزيدي، تاريخ الحروب الصليبية، دار أسامة للنشر والتوزيع، الأردن، عمان، 2004، د.ط، ص 22.

الفصل الأول

مراحل حروب الاسترداد

المبحث الأول: استنجد الأندلس بالمرابطين

المبحث الثاني: استنجد الأندلس بالموحدين

تمهيد:

كان ألفونسو السادس ملك ليون وقشتالة أقوى ملك نصراني صليبي في ذلك الوقت، ولم ينسى ألفونسو السادس يوما عداوة أباؤه وأجداده للمسلمين في الأندلس، لذلك ليس غريبا أن يستأنف ألفونسو حرب الاسترداد الصليبية في شبه الجزيرة الإيبيرية، بل وتكون أشدها ضراوة وقوة وحمية.

وقد اتسمت فترة الصراع الإسلامي الصليبي في عهد ألفونسو بالدينية، وكان بتأييد من البابوية الكنيسة، لذلك اتسم الصراع بالحماسة الشديدة من أجل تحقيق أهداف الكنيسة في القضاء على الإسلام والمسلمين في الأندلس.

المبحث الأول: استتجاد الأندلس بالمرابطين

كانت المغرب والأندلس في أيام ظهور المرابطين تعيشان حالة من الفوضى والاضطراب السياسي، الذي عانت منه شعوب تلك البلاد معاناة مرة حيث غاب القانون الأمن والاستقرار، ففي المغرب كانت الفوضى والفقر منتشرة أما في الأندلس فقد كانت تعيش حالة التشتت والفرقة.

1- وضع الأندلس قبل تدخل المرابطين

في الوقت الذي تأسست فيه دولة كبيرة في المغرب الأقصى ألا وهي دولة المرابطين¹، على يد يوسف بن تاشفين.

كانت الأحداث تتطور سريعا في الأندلس فقد كانت وحدة الأندلس قد تمزقت إلى دويلات صغيرة صقلية وعربية²، وبربرية، وتبع ذلك انهيار قوة الإسلام العسكرية تبعا لهذا التمزق السياسي، الأمر الذي يشر أمام الدول النصرانية وعلى الأخص قشتالة مهمة التهام هذه الدويلات وإخضاعها، الواحدة تلوى الأخرى في نفس الوقت الذي كان فيه ملوك الطوائف منغمسين في اللهو والترف،

¹ - المرابطون: ترجع أصولهم إلى قبيلة لمتونة، وهي إحدى بطون صنهاجة، البرانس، سميوا بالمرابطين نسبة إلى رباط عبد الله بن ياسين كما سميوا بالمرابطين لشدة صبرهم وحسن بلائهم، ينظر: مؤلف مجهول، الحلل الموشية، ص ص 16-17.

² - ابن بسام (أبو الحسن الششتري)، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة القسم الرابع، القاهرة، 1945، د.ط، مج1، ص 127.

يدرؤون الملوك النصرانية عنهم بالجزيان ويوادعوهم بالأتوات إلى أن تنهبوا بسقوط طليطلة في عام (478هـ/1085م)¹ في يد ألفونسو السادس ملك قشتالة، فقد جاء سقوطها نذيرا بما يترصد الإسلام في الأندلس من أخطار.

ارتجت الأندلس كلها لهذه الحادثة رجة عنية وشعر الأندلسيون أن أمر الأندلس كله آل إلى الضياع، وقد عبر الشاعر الأندلسي عبد الله بن فرج اليعممي المشهور بابن العسال عن الآثار المتوقعة لمصير الإسلام في الأندلس بعد سقوط طليطلة بالأبيات الثلاثة التالية:

يا أهل الأندلس حثوا رواحلكم فما المقام بها إلا من الغلط
الثواب ينسل من أطرافه وأرى ثوب الجزيرة منسولا من الوسط
ونحن بين عدو لا يفارقنا كيف الحيات مع الحياة في سفظ²
وأقفرت مملكة طليطلة من السكان الذين هجروها جماعات إلى بطليوس³، هربا من الاضطهاد وحفاظا على دينهم⁴.

شعر ألفونسو بأنه أضحى قادرا على تحدي دول الطوائف جميعا والقضاء عليها، فغير من خطته السابقة التي كانت تقوم على أخذ الأموال إلى محاولة الاستيلاء على الحصون والمدن، فقد رأى زمام الأندلس قد صارت في كفه، فشن الغارات على جميع البلاد ونجح بالاستيلاء على المدن والقرى ما بين وادي الحجارة إلى طليطلة وأعمال شنتمرية كلها⁵.

ولاح له أن نهاية الطوائف قد دنت وإنه سوف يتبع نصرا بنصرا.

¹ - ابن بسام، المصدر السابق، ص 127/ ابن خلكان (شمس الدين أبو العباس أحمد بن محمد)، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، مطبعة الميمنية، مصر، 1310هـ، د.ط، ج 5، ص 27.

² - المقرئ (شهاب الدين) أبو العباس أحمد بن محمد التلمساني، نفتح طيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب، تح: محمد محي الدين عبد الحميد، القاهرة، 1949، ط 1، ج 6، ص 84.

³ - بطليوس: هي مدينة كبيرة بالأندلس من أعمال ماردة على نهر آنة غربي قرطبة، ينظر: الحموي شهاب الدين ياقوت بن عبد الله (ت 626هـ/1228م)، معجم البلدان، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 1997، ط 1، ج 2، ص 353.

⁴ - رينهارت دوزي، تاريخ مسلمي إسبانيا، تر: حسن حبشي، دار المعارف، 1963، ج 3، ص 120.

⁵ - لسان الدين بن الخطيب، تاريخ المغرب العربي في العصر الوسيط، المصدر السابق، ص 241.

بدأ بالضغط على الدول الكبرى المجاورة له أي مملكتي بطليوس وإشبيلية، فقد أرسل إلى المتوكل بن الأفطس صاحب بطليوس يطلب منه تسليم بعض الحصون والقلاع المتاخمة لحدوده مع تأدية الجزية ويتوعده بشر العواقب إذا رفض، ولكن المتوكل لم يكن عند حسن ظنه فقد رفض التهديد ورد عليه برسالة تفيض شجاعة ونبلا: "إن الله جنودا أعز بهم كلمة الإسلام وأظهر بهم دين نبيا محمد "صلى الله عليه وسلم" أعزه على الكافرين ... وأما تعبيرك للمسلمين فيها وهي من أحوالهم، فالذنوب المركوبة، ولو اتفقت كلمتنا مع سائرنا من الأملاك علمت أي مصاب كما كان أبؤك تتجرعه ... وبالأمس كانت قطيعة المنصور على سلفك أهدي ابنته إليه الذخائر التي كانت تنقد كل عام عليه"¹.

ندب المتوكل قاضيه الفقيه أبا الوليد الباجي ليطوف على حواضر الأندلس يدعوا إلى توحيد الكلمة ومدافعة العدو، ولكن مهمة القاضي لم تتكفل بنجاح لأن ضعف الأمراء وانهايار مقومات الدولة وتخاذل الرعية، فرضت على الحكام استرضاء العدو وعند إذن كتب المتوكل إلى الأمير يوسف بن تاشفين يصور له محنة الأندلس ويستنصره².

ويعود سبب استنجد ملوك الطوائف بيوسف بن تاشفين إلى الطمع الزائد لألفونسو، حيث كان يرغب في الاستيلاء على الأندلس المسلمة، خاصة بعد أن ملك طليطلة، فكتب إلى المعتمد بن عباد يطلب منه تسليم أعماله إلى رسله وعماله، لأنهم أقدر على إدارة البلاد واشتد عليه في الطلب، ولا يفوتنا هنا أن نذكر أن المعتمد كان حليفا لألفونسو أثناء حصاره لطيطة وأن هذا التحالف هو الذي سهل لألفونسو اغتصاب هذه الإمارة وخذل المخلصين فيها³.

وزيادة على ذلك أنه مارس على المعتمد أنواعا من الإذلال ليخرجه عن طوره، ويلغي الاتفاقية الهزيلة بين الطرفين ويجد ألفونسو والنصارى ما يبرر أفعاله الانتقامية والوحشية⁴.

¹ - الصلابي، الجوهر الثمين، المرجع السابق، ص ص 93-94.

² - محمد عبد الله عنان، المرجع السابق، ع2، ص ص 91-92.

³ - مجهول، حلل الموشية، المصدر السابق، ص 41.

⁴ - محمد علي الصلابي، المرجع السابق، ص ص 91-92.

فطلب ألفونسو السادس من المعتمد أن يسمح لزوجته القمطية أن تلد في جامع قرطبة، بناءً على نصيحة الأساقفة، لأن الطرف الغربي كان موقع كنيسة قرطبة القديمة، وسأله أن تنزل بالزهراء مدينة الخليفة الناصر، لتكون ولادتها بين طيب نسيم الزهراء وفضيلة موضع الكنيسة المزعوم¹.
ومما زاد في إسرار المعتمد بن عباد على الاستنجاد بالمرابطين هو إرهاب ألفونسو له بطلب الجزية، حيث أرسل إليه ابن شاليب اليهودي في اقتضائها، وذلك في سنة 475هـ وقع عندئذ ما وقع من بطش بن عباد برسول ألفونسو، وخروج ملك قشتالة في قواته للانتقام من بن عباد، واجتياحه للمملكة وتخريبه لمدنها ومروجها، من إشبيلية جنوباً حتى مدينة طريف، أقصى جنوب الأندلس على المضيق، وأدخل قوائم فرسه في البحر قائلاً: "هنا آخر بلاد الأندلس قد وطئته"².
عاد ألفونسو إلى إشبيلية حيث التقى بجيشه الآخر أمام قصر المعتمد بن عباد³.
بضفة النهر، وحاصر المدينة ثلاثة أيام، وكتب إلى المعتمد يسأله أن يرسل إليه مروحة لطرده الذباب، لم يتحمل المعتمد هذه الإهانة ردك "قرأت كتابك وفهمت خيلاءك وإعجابك، وسأنظر إليك مرواحاً من الجلود اللمطية تروح منك ولا تروح عليك"⁴.
ترك ألفونسو إشبيلية وسار نحو سرقسطة وحاصرها، كانت شبه ضائعة تنتظر مصيراً المؤلم، وصاحبها بن هود لا يستطيع الدفاع عنها، ثم أخذ بلسنية وأعطاهم للقادر بن ذي النون صاحب طليطلة السابق، وهاجم مملكة المرية ووصل القشتاليون إلى نابار قرب غرناطة.

¹ - نصر الله سعدون عباس، دولة المرابطين في المغرب والأندلس (عهد يوسف بن تاشفين)، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، 1405هـ/1985م، ط 1، ص ص 63-64.

² - محمد عبد الله عنان، المرجع السابق، ع2، ص 17/ الحميري أبو عبد الله محمد بن عبد المنعم (ت 900هـ/1494م)، الروض المعطار في خبر الأقطار، تح: إحسان عباس، مكتبة لبنان، بيروت، 1915، د. ط، ص 80.

³ - أبو العباس أحمد بن خالد الناصري، الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى الدولتان المرابطية والموحدية، تح: جعفر الناصري ومحمد الناصري، دار الكتاب، الدار البيضاء، الرباط، 1997، د. ط، ج 2، ص 33.

⁴ - الناصري، المرجع السابق، ص 34/ الحميري، المصدر السابق، ص 80.

كان الخطر على الأندلس شديدا وقلّة الشجاعة وانحياز الروح المعنوية تثبط العزائم، إذ أن ثمانين قشتاليا هزموا أربع مائة من المرية¹.

وعلى أثر هذه الأحداث المفرّعة اجتمع علماء وفقهاء وزعماء قرطبة للتشاور والتوصل إلى حل لإنقاذ مدينتهم²، بعدما أدركوا أن سياسة هذا الملك القوي تنطوي على الخديعة والغدر، واعتمروا عندئذ أمرهم في استدعاء المرابطين³.

قام المعتمد بن عباد بكتابة رسالة إلى الأمير المرابطي يوسف بن تاشفين، ولما قرأ هذه الأخير الرسالة رأى ضرورة استشارة قومه وفقائه وكبار رجال دولته في ذلك، فوافقوا على تلبية هذه الدعوة، وقالوا له أن الواجب على كل مسلم يؤمن بالله ورسوله إغاثة أخيه المسلم⁴.

كذلك استشار يوسف كاتبه عبد الرحمن بن أسباط⁵ وكان أندلسيا من مدينة المرية⁶، فذكر بن أسباط ليوسف تاشفين ما يعترض الحرب في الأندلس من أخطار، وأشار عليه أن يطلب من المعتمد التنازل عن الجزيرة الخضراء، ليضع فيها يوسف أثقاله وجنوده، وليضمن سلامته⁷.

¹ - ابن الكردبوس، تاريخ الأندلس، دراسة وتحقيق أحمد مختار العبادي، المعهد الوطني للدراسات الإسلامية، مدريد، ص 89.

² - سعدون عباس، دولة المرابطين في المغرب والأندلس، المرجع السابق، ص 68.

³ - الصلابي، الجوهر الثمين، المرجع السابق، ص 93.

⁴ - حمدي عبد المنعم محمود حسين، التاريخ السياسي والحضاري للمغرب والأندلس في عصر المرابطين، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 1995، د.ط، ص 56.

⁵ - عبد الرحمان بن الأسباط: توفي في سبته سنة 487هـ وتقلد كتابة يوسف بن تاشفين بعده أبو بكر بن القصير، ينظر: لسان الدين ابن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، تح: محمد عبد الله عنان، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1395هـ/1975م، ط1، مج03، ص 523.

⁶ - المرية: هي أشهر مراكز الأندلس المتوسطية، بناها عبد الرحمن الناصر سنة 344هـ، وهي في جنوب شرق الأندلس، واتصفت بمحاصلاتها وبنشاطها التجاري والصناعي، ينظر: مؤلف مجهول، الحلل الموشية، ص 49.

⁷ - حمدي عبد المنعم، المرجع السابق، ص 57.

فأبلغ يوسف على الفور المعتمد بموافقته على العبور إلى الأندلس على هذا الشرط، فلما ورد كتاب يوسف بن تاشفين على بن عباد، لم يتردد في الاستجابة لطلب بن تاشفين، وأمر ولده الراضي يزيد الوالي على الجزيرة الخضراء، بإخلائها والانتقال عنها¹. وعندئذ بدأ يوسف يتأهب للعبور إلى الأندلس، فأرسل إلى سائر مدن المغرب يطلب سرعة موافاته بالإمدادات، كما انتقل إلى مدينة سبتة للإشراف على نقل قواته إلى الأندلس، فلما تكاملت حشوده، أمرها بالعبور إلى الأندلس في شهر جمادى الأولى سنة (479هـ/1086م)، فنزل بالجزيرة الخضراء، وحرص على تحصينها، فأمر ببناء الأسوار حولها، وأصلح ما تصدع من أبراجها وشحنها بالأطعمة والأسلحة، وأبقى فيها فرقة عسكرية من خيرة جنوده لتأمين ظهره في حالة انسحابه، ثم رحل عن الجزيرة متجها صوب إشبيلية، ولما اقترب منها خرج المعتمد إلى لقائه في وجوه أصحابه وقواده، وعند اللقاء تعانق الرجلان، وقدم المعتمد له الكثير من الهدايا والتحق ثم رحلت الجيوش إلى إشبيلية، حيث أقاموا ثلاثة أيام².

ثم كتب إلى رؤساء الأندلس يحصمهم على اللحاق به فلحق به عبد الله بن بلقين³، صاحب غرناطة⁴ وأخوه تيم صاحب مالقة، وبن الأفطس صاحب بطليوس⁵.

¹ - ابن الخطيب، أعمال الأعلام، المصدر السابق، ص 249.

² - محمد عبد الواحد المراكشي، المعجم في تلخيص أخبار المغرب، شرحه واعتنى به، صلاح الدين الهواري، المكتبة العصرية، بيروت، 1426هـ/2006م، ط1، ص ص 103-104.

³ - عبد الله بن بلقين: هو عبد الله بن بلقين بن باديس بن جبوس بن ماكس بن زيري بن مناد الصنهاجي، آخر ملوك غرناطة في عهد ملوك الطوائف وقد نفاه المرابطون إلى مدينة أغمات، ينظر: ابن الخطيب، أعمال الأعلام، المصدر السابق، ص 240.

⁴ - غرناطة: تقع وسط المملكة تمتد جنوبا حتى بحر الروم، وتنفذ حدودها الشرقية على البحر المتوسط، تشمل شمال منطقة ألمرية وتمتد جنوبا حتى جبل الفتح أو جبل طارق، أما حدودها الغربية فتنتهي عند سفوح الجبل الأسمر، ينظر: الإدريسي، نزهة المشتاق في اختراق الأفاق، عالم الكتب، بيروت، 1989م، ط1، ج2، ص 568/ يوسف شكري فرحات، غرناطة في ظل بني الأحمر، (دراسات حضارية)، دار الجيل، بيروت، 1413هـ/1993م، ط1، ص 9.

⁵ - ابن الخطيب، أعمال الأعلام، المصدر السابق، ص ص 241-242.

2- معركة الزلاقة وآثارها:

2-1- جواز المرابطين:

بعد ما تأكد يوسف بن تاشفين من مدى احتياج ملوك الطوائف له، ورأى أن الظروف أصبحت مناسبة، أمر جيوشه بالعبور إلى الأندلس، فنزلت أعداد كبيرة منها بالجزيرة الخضراء في منتصف الربيع الأول عام 479هـ/30 يونيو 1086م¹، وقد اختلفت الروايات حول العدد الحقيقي للمرابطين الذين عبروا المجرز².

سارع يوسف بن تاشفين لتحسين المدينة وإصلاح أسوارها، قبل أن تمضي حشوده باتجاه إشبيلية³، وقد انتشرت في الأندلس أنباء عبوره بشكل سريع، وهذا ما زاد في رفع الروح المعنوية لملوك الطوائف على عكس ألفونسو السادس، الذي اختلعت حساباته.

ودب الخوف في أوصاله بعد ما كان محاصراً لسرقسطة التي كان مصمماً على أخذها كما فعل مع طليطلة فلجأ إلى استعمال الحيلة مع المستعين ضناً منه أنه لا يعلم بقدوم المرابطين حيث أرسل إليه يعلمه أنه يقبل بالأموال التي عرضت عليه في السابق مقابل رفع الحصار، لكن أمله خاب بعد رفض المستعين لأمره⁴.

عندها اضطر ألفونسو إلى رفع الحصار عن سرقسطة، وقفل عائداً إلى طليطلة استعداداً لمواجهة المرابطين⁵، وراح يصرخ ويستنجد بالكنيسة وبأوروبا المسيحية فاجتمع الفرسان من المسيحيين

¹ - ابن أبي الزرع الفاسي (أبو العباس أحمد)، الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب ومدينة فاس، تح: عبد الوهاب بن منصور، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، 1972، ص 145.

² - محمد حامد الخليفة، انتصارات يوسف بن تاشفين (1009/400-500هـ/1106م) بطل الزلاقة وقائد المرابطين موحد المغرب ومنقذ الأندلس من الصليبيين، مكتبة الصحابة، مكتبة التابعين، القاهرة، 1465-2004، ط1، ص ص 159-160.

³ - مؤلف مجهول، الحلل الموشية، المصدر السابق، ص 51.

⁴ - ابن الكردبوس، الاكتفاء في أخبار الخلفاء، المنشور في كتاب تاريخ الأندلس لابن الكردبوس وصفه بن الشباط، نسان جديدن، تح: أحمد مختار العبادي، معهد الدراسات الإسلامية، مدريد، 1971، ص ص 91-92.

⁵ - المصدر نفسه، ص 92.

من كلة ناحية¹، منهم سانشو راميرث ملك أراغون (435-487هـ/1043-1094م) الذي كان يحاصر مدينة طرطوشة، إلى قائده البرهانس الذي كان يحاصرها بلنسية، وهكذا يكون قد أتم استعداده للقاء المسلمين².

والظاهر أن ألفونسو كان متخوفا من مواجهة المرابطين، وهو الذي لم يألف حربهم، ولا عرف طريقة قتالهم³، لذلك بذل قصارى جهده في تحقيق التفوق في العدة والعتاد على المسلمين، ولتخويف المرابطين بكثرة جنوده، وبالفعل نجح إلى حد ما في خطته، فقد اندهش يوسف بن تاشفين من أعداد النصارى عند اللقاء، وقال: "ما كنت أظن هذا الخنزير يعني (ألفونسو) يبلغ هذا الحد!"⁴ لذلك فضل يوسف بن تاشفين أن تجري وقائع المعركة قرب مدينة بطليوس حتى إذ لحقت به الهزيمة استطاع الاحتماء بأسوار المدينة⁵.

لكن ألفونسو تنبه إلى هذه الخطة فقام بإرسال رسالة استفزازية إلى يوسف قائلا: "ها أنا قد أقلت أريد ملاقاتك وأنت تبرص وتختبئ لأصل المدينة!". وقد جاءت هذه الرسالة بعد رسالة يوسف بن تاشفين، إلى ألفونسو الذي خيره فيها بين الإسلام، الجزية، الحرب، إلا أن ألفونسو اختار الحرب⁶، وعندها قرر يوسف بن تاشفين الانتقال نحو القوات النصرانية لتبدأ المراسلات بينهما لتحديد موعد اللقاء⁷.

حاول ألفونسو استعمال المكر والخديعة كعادته فبعث برسالة إلى يوسف بن تاشفين يقول فيها: "إن غدا يوم الجمعة، ولا نحب مقاتلتكم لأنه عيدكم، وبعده السبت يوم عيد اليهود، وهم

¹ - محمود السيد، تاريخ دولتي المرابطين والموحدين، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، 2004، د.ط، ص 33.

² - ابن أبي الزرع الفاسي، روض القرطاس، المصدر السابق، ص 146.

³ - عبد الواحد المراكشي، المصدر السابق، ص 118.

⁴ - المصدر نفسه، ص 119.

⁵ - ابن بلكين، التبيان عن الحادثة الكائنة بدولة بني زيري في غرناطة، أعاد نشره علي عمر معتمدا على تحقيق ليفي بروفنسال، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 1427هـ/2006م، ط1، ص 133.

⁶ - مؤلف مجهول، الحلل الموشية، المصدر السابق، ص 53-54.

⁷ - المصدر نفسه، ص 57.

كثيرون في محلتنا ونحن نفتقر إليهم، وبعده الأحد عيدنا، فنحترم هذه الأعياد، وبالتالي يكون اللقاء يوم الاثنين"، فوافق يوسف على ذلك¹.

إلا أن المعتمد بن عباد بما أنه كان حليفاً لألفونسو في السابق، تنبه إلى مكره فأمر جنوده بالاستعداد للمواجهة في أي لحظة.

وبالفعل حدث ما توقعه المعتمد، لأن ألفونسو باغت المسلمين يوم الجمعة الثاني عشر من شهر رجب من سنة 479هـ الموافق للثالث والعشرين من أكتوبر 1086م²، في موضع يعرف بالزلاقة³ بين بطليوس وقورية، أي بين ضفتي واد آنة ووادي تاجة⁴.

2-2- أحداث معركة زلاقة:

وفي سهل الزلاقة اشتبك الجيشان في صراع عنيف، وفي معركة رهيبية عامة هجمت فيها مقدمة النصارى بقيادة البارهانس على مقدمة المسلمين التي يقودها المعتمد بن عباد، يسانده داود بن عائشة بفرسانه المرابطين⁵، في البداية كانت الغلبة للجيش النصابي لأنه متفوق في العدة والسلاح، لكنهم اصطدموا بصبر المرابطين وحنكتهم العسكرية، حيث أبدى المعتمد بن عباد بسالة في القتال كفر بها عن ذنوبه اتجاه إخوانه في طليطلة.

¹ - عبد الواحد المراكشي، المصدر السابق، ص 119.

² - اختلفت الرواية الإسلامية في تحدد تاريخ معركة الزلاقة، فجعلها ابن الكردبوس يوم الجمعة 10 رجب 481هـ، ينظر: الاكتفاء، ص 95، وإلى نفس السنة ذهب بن خلدون، العبر وديوان المبتدأ والخبر أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، ج4، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1413هـ/1992م، أما المراكشي، فيجعل تاريخ المغرب في 12 رمضان 480، المعجب، ص ص 119-120، أما الروايات الأخرى فكلها تشير إلى سنة 479هـ مع اختلافات في تحديد اليوم والشهر.

³ - سميت بالزلاقة لأنها وقعت بمكان يسمى باسمها، وتسمية المصادر المسيحية ساكر لياس، ويعرف اليوم باسم ساجر جاس، ينظر: الحلل الموشية، لمؤلف مجهول، ص ص 38-66، عبد الواحد المراكشي، المصدر السابق، ص ص 130-135، ابن خلدون، المصدر السابق، ج6، ص 383، بن أبي الزرع الفاسي، المصدر السابق، ص ص 144-149.

⁴ - مؤلف مجهول، الحلل الموشية، المصدر السابق، ص ص 33-34.

⁵ - ابن أبي الزرع، روض القرطاس، المصدر السابق، ص 97.

إلا أن ضغط النصارى كان يزداد على جبهة داود بن عائشة، مما اضطر بيوسف بن تاشفين إلى إمدادهم بأقوى قادته وهو سير بن أبي بكر على رأس قوة من المرابطين استطاع أن ينفذ بها إلى قلب جيش النصارى وأن يخفف من الضغط على الأندلسيين، إلا أن ألفونسو تمكن من اقتحام الخندق الذي كان يحميهم¹.

وهنا يتدخل يوسف بن تاشفين بحنكته العسكرية ويدبر الضربة النهائية التي يقلب بها الموازين لصالح المسلمين، وتمثلت في خطة كانت مفاجئة للعدو من جهة لا يتوقعا².

فتقدم بقواته الاحتياطية متجاوزا النصارى المهاجمين، وقصد إلى معسكرهم فأضرم النار وأحرقه وقتل حماته من الفرسان والرجال فلما علم ألفونسو السادس ما حل بعقله³، حاول استدراك الأمر إلا أنه مزق هو وقواته شر تمزيق.

هذا كله راجع إلى كفاءة يوسف بن تاشفين الحربية وحنكته، وصدق نية القائمة على إعلاء كلمة "لا إله إلا الله" فقد كان يمشي بين صفوف المسلمين ويقول: "يا معشر المسلمين اصبروا لجهاد أعداء الله الكافرين ومن رزق منكم الشهادة فله الجنة، ومن سلم فقد فاز بالأجر والغنيمة"⁴.

مستندا في ذلك إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًا كَانَهُمْ بُنْيَانًا مَرْصُوصًا﴾⁵ الصف: 04.

وبهذا النصر المؤزر الرائع الذي أحرزه المسلمون بقيادة أميرهم أبي يعقوب انتهت الموقعة التي استمرت ليوم واحد فقط.

ويذكر بن الخطيب "وقد حطم الله شوكة العدو الكافر ونصر المسلمين وأجزل لديهم نعمه؟ وأظهر بهم عناية وأجمل لديهم صنيعه"⁶.

¹ - محمد حامد الخليفة، المرجع السابق، ص 147.

² - ابن أبي الزرع، روض القرطاس، المصدر السابق، ص 95، محمد عبد الله عنان، دولة الطوائف، ص 324.

³ - المصدر نفسه، ص 95، محمد عبد الله عنان، المرجع السابق، ع2، ص 324.

⁴ - ابن أبي الزرع، روض القرطاس، المصدر السابق، ص 95.

⁵ - سورة الصف، الآية: 04.

⁶ - لسان الدين ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ص 367.

وحسب كتاب الحلل الموشية "كان يوما لم يسمع بمثله من يوم اليرموك والقادسية، فيا له من فتح ثبت قدم الدين بعد انزلاقها، وعادت ظلمة الحق إلى إشراقها ... واعتز بها رؤساء الأندلس، فجزى الله أمير المسلمين وناصر الدين أبا يعقوب يوسف بن تاشفين أفضل الجزاء"¹.

2-3- نتائج وانعكاسات معركة الزلاقة:

تعتبر معركة الزلاقة حدثا تاريخيا هاما فيها تقرر مصير الإسلام والمسلمين في شبه الجزيرة الإيبيرية، وقد كان لها عدة نتائج مهمة من أهمها²:

- إنقاذ الأندلس من خطر حركة الاسترداد التي رفع شعارها ألفونسو السادس، ورفع الحصار الذي كان مفروضا على الكثير من أمهات مدن الأندلس³.

فمنحت الأندلس بذلك عمرا جديدا عاشت فيه قرونا من الزمن وقد كان ذلك النصر ثارا حقيقيا استوفى فيه الأندلسيون ما أقترفه الأسباب بحقهم من ظلك وعدوان استمر سنين⁴.

- تألق نجم يوسف بن تاشفين وذياع صيته في المغرب والأندلس، بل أنه أصبح في نظر الفقهاء هو مبعوث العناية الإلهية⁵.

- حرر سرقسطة وحماها من الوقوع في أيدي القشتاليين، وكانوا يحاصرونها عندما نزلت قوات المرابطين بالأندلس، كما أنقذ طرطوشة من حصار سانشوا راميرث لها، وكذلك بلنسية التي كان برنجار ريموند يتأهب لغزوها⁶.

¹ - مؤلف مجهول، الحلل الموشية، المصدر السابق، ص 66.

² - عبد الواحد المراكشي، المصدر السابق، ص 196.

³ - السيد عبد العزيز سالم، تاريخ المغرب في العصر الإسلامي، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، 2011، د.ط،

ص 726.

⁴ - السيد عبد العزيز سالم، تاريخ المغرب في العصر الإسلامي، المرجع السابق، ص 727.

⁵ - رينهارت الدوزي، المرجع السابق، ص 131.

⁶ - السيد عبد العزيز سالم، تاريخ المغرب في العصر الإسلامي، المرجع السابق، ص 727.

● أنقذ الإسلام والمسلمين في الأندلس من أيدي النصارى، الذين كانوا يتطلعون إلى القضاء على الإسلام وطرد المسلمين من شبه الجزيرة¹.

ارتفع نجم الدولة المرابطية وزعيمها يوسف بن تاشفين في عالم الإسلام عامة والأندلس خاصة²، مما جعل ملوك الطوائف يسقطون في نظر رعيّتهم، وهذا ما مهد إلى إسقاط دويلات الطوائف³.

بعدما أنهى أمير المسلمين مهمته في الأندلس قرر العودة⁴ إلى المغرب لكن قبل ذلك قام باتخاذ عدة إجراءات وتدابير مستقبلية لدعم الأندلس والاطمئنان عليها⁵، وكان من أولى تلك التدابير، دعوته لملوك الطوائف إلى الوحدة، ورض الصفوف ونبذ الخلافات وبذل الجهود في مواجهة العدو.

الذي يتربص بهم جميعاً، ثم ترك قوة من ثلاثة آلاف فارس من المرابطين دعماً للمعتمد بن عباد ويعملون بإمرته⁶، يقودهم القائد أبو عبد الله بن حاج، وبهذا استطاع المعتمد بن عباد مهاجمة أراضي طليطلة والاستيلاء على إفليش وقونكة.

كما ترى أمير المسلمين قوات مرابطية أخرى في غرب الأندلس، يقودها القائد سير بن أبي بكر وقد استطاعت هذه القوات بالتعاون مع قوات المتوكل ابن الأفطس أمير بطليوس، الإغارة على أواسط البرتغال مما يلي نهر التاجرة⁷، وبهذا يتبين لنا أمير المسلمين قد حصن الجبهة الغربية للأندلس⁸.

¹ - حمدي عبد المنعم حسن، المرجع السابق، ص 60.

² - محمود السيد، تاريخ دولتي المرابطي والموحدين، مؤسسة شباب الجامعة، د.ط، الإسكندرية، 2004، ص 35.

³ - السيد عبد العزيز سالم، تاريخ المغرب في العصر الإسلامي، المرجع السابق، ص 727.

⁴ - تذكر بعض المصادر التاريخية أن عودة يوسف بن تاشفين السريعة إلى بلاد المغرب جاءت بسبب وفاة أحد أبنائه، ينظر: مؤلف مجهول، الحلل المشوية، ص 66.

⁵ - علي محمد الصلابي، تاريخ دولتي المرابطين والموحدين في شمال إفريقيا، دار المعرفة، بيروت، لبنان، 2009/1430، ط3، ص 120.

⁶ - محمد حامد الخليفة، المرجع السابق، ص 160.

⁷ - حسن أحمد محمود، قيام دولة المرابطين، القاهرة، د.م.ن، 1957، ط1، ص 288.

⁸ - ابن عذارى المراكشي، بيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تح: إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، لبنان، 1983، ط3، ج4، ص ص 22-23.

3- معركة الليط وأثارها:

بعد عامين من معركة الزلاقة، ساءت الأوضاع الأندلس من جديد وعاود ألفونسو السادس تطبيق سياسته التقليدية، وذلك بإرهاق الأندلسيين بالحملة التخريرية والغارات المختلفة التي تركزت هذه المرة على شرق الأندلس وجنوب شرقها¹، لأن غربها كان محصنا كما ذكرنا سابقا².

كان شرق الأندلس آنذاك يسوده اضطراب والفوضى من جراء تدخل القشتاليين إذ أن المعتمد ابن عباد اتجه إلى أرض مرسية، بعدما استولى على عدة مدن منها: إقليش وقنكة ووبدة، حيث استقرت جموع كبيرة من الفرسان النصارى بقيادة الكنيطور، في أحد الحصون القريبة وأخذت من هناك في الإغارة على المدن الإسلامية وخاصة على مدينة المرية، فاشتبك ابن عباد مع الكنيطور ولكنه انهزم واضطر إلى الفرار، ملتجئا إلى قلعة لورقة في كنف واليها محمد بن لبون، فر إلى قرطبة تاركا مرسية لمصيرها المجهول³.

وفي هذه الأثناء أرسل ألفونسو السادس قوة من القشتاليين، لمساندة جموع النصارى، المرتكزة في حصن لييط، وأليدو Aledo، المنيع الواقع على مسيرة يوم واحد من لورقة لزيادة الضغط على مدن شرق الأندلس⁴.

وتطلب هذا الأمر ضرورة وعودة يوسف بن تاشفين مرة أخرى إلى مسرح الأحداث في الأندلس، فوفدت على المغرب من جديد وفود منها أهل بلنسية ومرسية ولورقة، يشكون إلى أمير

¹ - ابن الكردبوس، المصدر السابق، ص 96-97.

² - حامد محمد خليفة، المرجع السابق، ص 161.

³ - يوسف أشباخ، تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين، تر: محمد عبد الله عنان، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1999، ج1، ص ص 89-90.

⁴ - حصن ليبيط أو أليدو وهو حصن على رأس جبل شاهق بينه وبين لورقة نصف يوم، أقامه النصارى بهدف السيطرة على شرف الأندلس، ينظر: مؤلف مجهول، الحلل الموشية، ص 67، ابن أبي الزرع الفاسي، روض القرطاس، المصدر السابق، ص 152.

المسلمين ما حل بهم، فوعدهم يوسف بالجواز مرة أخرى، كما عبر إليه بن عباد حيث استقبله الأمير يوسف في موضع على واد سبو وأطلعه على أهل الأندلس، فاستجاب يوسف لرغبته¹

ثم جاز يوسف إلى الجزيرة الخضراء في الربيع الأول سنة 481هـ/1088م، ومن هناك دعى جميع أمراء الأندلس إلى الجهاد، واتفق معهم أن يكون اللقاء عند حصن لبيط، فاستجاب له عبد الله بلكين صاحب غرناطة، وأخوه تميم، والمعتصم بن صمادح فضلا عن المعتمد بن عباد الذي استقبل يوسف بن تاشفين².

وأغراه بالهدايا، بالإضافة إلى أمراء مرسية وشقورة وبسطة وجيان، ولم يتخلف من ملوك الطوائف سوى بن الأفطس صاحب بطليوس واتجهوا إلى حصن لبيط الذي تتمركز فيه الحامية القشتالية وأمها ألف فارس واثنى عشر ألف من المشاة، ثم حاصر المسلمون الحصن حوالي أربعة أشهر³، إلا أن النصارى أبدوا شجاعة وبسالة كبيرة في الدفاع عنه، حيث كانوا يخرجون ليلا للانقضاض على المسلمين وإحراق الخسائر بهم⁴.

وأثناء الحصار وقعت بعض الأحداث المؤسفة في المعسكر الإسلامي، فقد بدأ أمراء الأندلس يحكمون يوسف في خلافاتهم، فالمعتمد شكوا إليه خروج بن رشيق صاحب مرسية عن الطاعة واتهمه بتعاونه مع ألفونسو السادس وهذا يعد عاملا في إطالة مدة الحصار، فأمر يوسف - بعد استشارة الفقهاء - بالقبض على بن رشيق وسجنه، ومما دفع بجنده وشيعته بالثورة عليهم وانسحبوا من المعركة وقطعوا عنهم الإمدادات فوقعت المجاعة وغلت الأقوات⁵.

إضافة إلى المشاحنات التي حدثت بين أمير مالقة وأخيه أمير غرناطة حول ممتلكات جدهم.

¹ - يوسف أشباخ، المرجع السابق، ج1، ص ص 89-90، السيد عبد العزيز سالم، تاريخ المغرب في العصر الإسلامي، المرجع السابق، ص ص 768-769.

² - ابن بلكين، المصدر السابق، ص ص 184-185.

³ - ابن أبي الزرع، روض القرطاس، المصدر السابق، ص 160، مؤلف مجهول، الحلل الموشية، ص ص 48-49.

⁴ - مؤلف مجهول، الحلل الموشية، ص ص 48-49، ابن أبي الزرع، روض القرطاس، المصدر السابق، ص 106.

⁵ - يوسف أشباخ، المرجع السابق، ص 91.

تراجع المرابطون إلى المدينة لورقة التي تبعد مسافة نصف يوم عن هذا الحصن بعد حصار دام أربعة أشهر حينما تأكد يوسف بن تاشفين أن ملوك الطوائف لا عهد لهم وأن الخيانة تمشي في عروقهم، كابن الرشيق الذي لم يتردد لحظة في مخالفة العدو مقابل تحقيق مصالحه¹، ثم رحل إلى المرية ومنها ركب البحر إلى مراكش، وهنا أقبل ألفونسو بحشوده ونزل على حصن لبيط، ورأى أنه نظرا لموقع الحصن في قلب بلاد المسلمين، فانه لا يمكن الدفاع عنه دون حامية كبيرة، فأمر بإخلائه ممن بقي فيه من النصارى ثم عاد إلى حاضرتة طليطلة، وفي هذه الأثناء تحرك بن عباد واستولى على الحصن بعد تخريب النصارى له².

وهنا تنتهي أحداث الحصار وأخبار الحملة الثانية التي قام بها أمير المسلمين تلبية لدعوة إخوانه في العقيدة ومناصرتهم على عدوهم³.

3-1- نتائج معركة حصن لبيط:

بالرغم من عدم نجاح معركة حصن لبيط، إلا أنها حققت عدة نتائج منها:

- انسحاب ألفونسو السادس من حصن لبيط الواقع في قلب أراضي المسلمين واستيلاء المعتمد بن عباد على الحصن⁴.

وبهذا يكون قد حقق نصرا كاملا، أولا تمثل في تخلصه من بن رشيق والثاني في استيلائه على حصن لبيط، على عكس يوسف بن تاشفين الذي كان هدفه الأسمى هو استرجاع أراضي الأندلس، والقضاء على أعداء الإسلام⁵.

¹ - عبد الله بن بلقين، المصدر السابق، ص 160، ابن أبي الزرع، المصدر السابق، ص 106، مجهول، المصدر السابق، ص 49-50، سالم، المرجع السابق، ص 730.

² - حامد محمد الخليفة، المرجع السابق، ص 170.

³ - ابن أبي الزرع، روض القرطاس، المصدر السابق، ص 106.

⁴ - مؤلف مجهول، الحلل الموشية، المصدر السابق، ص 70.

⁵ - حامد محمد الخليفة، المرجع السابق، ص 172.

لقد كانت معركة حصن لبيط، فرصة ليوسف بن تاشفين لكشف النوايا الحقيقية لملوك الطوائف، وأنهم ليسوا أهلاً لحكم الأندلس، فهم العدو الأول لها، لذلك أولاً وقبل كل شيء يجب القضاء عليهم¹.

وقاية لنفسه ولقواته من التعرض للطعن من الخلف أثناء جهاده ضد النصارى، ومما شجعه في ذلك الفتاوى التي وصلت من فقهاء المشرق والمغرب وعلى رأسهم الإمام الغزالي والطرطوشي، بجواز التخلص من ملوك الطوائف².

كما أن الاستيلاء على الأندلس كان يعتبر ضرورة عسكرية وإستراتيجية تتطلبها الظروف المستجدة لدولة المرابطين الناشئة، باعتبار أن الأندلس خط الدفاع الأول عن المغرب الإسلامي³.

4- زوال ملوك الطوائف:

بعدما قرر يوسف بن تاشفين وضع نهاية لحكم ملوك الطوائف، كان يدرك حجم الصعوبات التي تواجه هذا الهدف.

لذلك اتخذ احتياطات بهذا الشأن، كاستفتاء الفقهاء والعلماء من أجل الحصول على مبررات شرعية من شأنها كسب ولاء الأندلسيين وعدم اعتراضهم على هذا المشروع⁴.

جاز يوسف بن تاشفين إلى الأندلس للمرة الثالثة في سنة (483هـ/1090م)، وهو ينوي هذه المرة عزل الأمير عبد الله بن بلكين صاحب غرناطة بعد أن وضع تواطؤه مع ألفونسو السادس، فحاصر يوسف غرناطة وتمكن من دخولها، كما أرسل في نفس الوقت فرقة من جيشه إلى مدينة مالقا، حيث ألقى بالقبض على الأمير تميم بن بلكين ولما تم له ذلك الأمر، قام بنفي الأميرين إلى أغمات بالمغرب، إلى توفيا⁵.

¹ - ابن بلكين، المصدر السابق، ص 137.

² - ابن خلدون، العبر، ج6، ص 374، رينهارت دوزي، المرجع السابق، ص 141.

³ - مؤلف مجهول، الحلل الموشية، المصدر السابق، ص 51.

⁴ - عبد الله ابن بلكين، المصدر السابق، ص ص 182-184.

⁵ - مجهول، الحلل الموشية، المصدر السابق، ص 51.

وفي العام التالي، تحرك يوسف بن تاشفين من مراكش إلى سبتة ليشرف على عبور جيوش المرابطية الأربعة التي قرر إرسالها إلى الأندلس للقضاء على ملوك الطوائف، فتولى سير بن أبي بكر محاصرة المعتمد بن عباد في إشبيلية، لقد كان هدف يوسف بن تاشفين القضاء أولاً على المعتمد بن عباد بعد أن لجأ هذا الأخير إلى طلب المساعدة من ألفونسو السادس¹.

فقد وقعت في يد يوسف بن تاشفين بعض المراسلات السرية التي دارت بينهم، مما أغضبته وشاور الفقهاء في أمره، فأشاروا عليه بالاستيلاء على بلاده².

وفي نفس الوقت أرسل سير بن أبي بكر قائده بن إسماعيل إلى مدينة جيان، فدخلها صلحاً، ومنها ارتحل إلى قرطبة فتمكن منها، ثم ارتحل سير بن أبي بكر عن إشبيلية متجها صوب قرمونة ثم عاد مرة أخرى وشدّد حصاره على إشبيلية، مما جعل المعتمد يستغيث بألفونسو السادس³ ويعده بإعطائه بلاده إن أنقذه من المرابطين، فاستجاب ألفونسو السادس لطلبه⁴.

إلا أن المساندة لم تجدي نفعا ولا حتى صمود بن عباد، فقد اضطر في الأخير إلى مغادرة إشبيلية، والذهاب إلى أغمات.

أما رندة فقد فتحت بعدما تلقى الراضي خطاب والديه بعد حصار طويل⁵. وبالنسبة للمرية فقد استسلم أهلها دون عناء، لأن صاحبها معز الدولة هرب إلى المغرب الأوسط تنفيذا لوصية والده المعتصم بن صمادح⁶.

¹ - عبد الله ابن بلكين، المصدر السابق، ص 189.

² - المصدر نفسه، ص 163.

³ - إن عدد الجيش الذي بعثه ألفونسو السادس لمساندة المعتمد بن عباد هو عشرين ألف مشاة وأربعين ألف رجل وذلك حسب، ينظر: ابن الخطيب، أعمال الأعلام، المصدر السابق، ص 189.

⁴ - حمدي عبد المنعم، المرجع السابق، ص 67.

⁵ - ابن بلكين، المصدر السابق، ص 171، عبد الواحد المراكشي، المصدر السابق، ص 143.

⁶ - ابن خلدون، المصدر السابق، ج 6، ص 384، السيد عبد العزيز سالم، تاريخ مدينة المرية قاعدة أسطول الأندلس، بيروت، 1969، ط 1، ص 82.

واصلت القوات المرابطية مهمة القضاء على ملوك الطوائف فبعد دخول المرية جاء دور بني الألفس الذي كان صاحبها، المتوكل بن الألفس قد تحالف مع ألفونسو السادس ومنحه بعض المدن من أملاكه هي أشبونة، وشنترين ثمنا لتحالفه معه.

فكان لهذا أثر في زيادة الخلاف بينه وبين المرابطين، الذين اقتحموا قصبته ليلا، ثم قتل هو وأبناءه¹، وفي سنة 485هـ/1092م، أمر أمير المسلمين قائده داود بن عائشة بالتوجه إلى مرسية قاعدة شرق الأندلس وتمكن من هزيمة النصارى وخلع صاحب مرسية².

وفي ذلك الوقت اشتد الإضراب في بلنسية، وتطلع أهلها إلى التخلص من حكم القادر بن ذي النون، الذي كانت تسانده قشتالة وملكها ألفونسو السادس وقائده السيد الكنيطور³ الذي اعتبر بلنسية ملكا له، يأخذ منها أتاوة قدها ألف مثقال من ذهب كل عام، نظير حمايته للقادر بن ذي النون مما دفع بأهل بلنسية بتوجيه أنظارهم إلى المرابطين، وما ساعد المرابطين في التخلص من بن ذي النون هو رغبة البلنسيين في التخلص من القتاشلين ووجود شخصية طامعة في الحكم هو بن جحاف، الذي فتح بلنسية أمام المرابطين، وبالفعل حقق ما كان يصبو إليه وبويع له بالحكم⁴.

إلا أنها سرعان ما عادت إلى حكم القتاشليين بسبب تحالف الكنيطور مع بن جحاف على إخراج المرابطين من بلنسية ولما أحس أهل بلنسية بهذه الاتصالات السرية، أرسلوا إلى يوسف بن تاشفين يطلبون منه المساعدة، ولكنه لم يتمكن من مساعدتهم فسلموا أمرهم للكنيطور⁵.

كان لسقوط بلنسية في أيدي النصارى، أسوأ الأثر على أهل الأندلس، فقد توالى صرخاتهم على يوسف لاسترجاعها من النصارى فأرسل يوسف إلى عماله بالمغرب لإمداده بالرجال والعتاد، ثم

¹ - عبد الواحد المراكشي، المصدر السابق، ص 75، ابن الأبار، أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي، الحلة السيرة، تح: حسين مؤنس، دار المعارف، 1985، ط2، ج2، ص 102.

² - ابن أبي الزرع الفاسي، روض القرطاس، المصدر السابق، ص 108.

³ - القمبطور: يعرف في المصادر العربية بـ "السيد" كان من جنود شانحة أخو ألفونسو السادس، ينظر: ابن بسام، المصدر السابق، ج2، ص 168.

⁴ - ابن عذارى، المصدر السابق، ج4، ص 31، ابن الخطيب، أعمال الأعلام، المصدر السابق، ج2، ص 210.

⁵ - حمدي عبد المنعم محمود حسين، المرجع السابق، ص 71.

عبر المرابطون بقيادة محمد بن تاشفين سنة 487هـ/1094م إلى الأندلس وعرضوا على الكنيطور الفرار عن بلنسية إلا أنه رفض ذلك وطلب المساعدة من ألفونسو السادس، وتمكن من المسلمين¹.
 وفي عام 490هـ/1096م أرسل يوسف قائده محمد بن الحاج علي رأس جيش، وفي هذه المرة أحرزوا انتصارا حاسما على جموع النصارى وقتلوا ديجو Gigo، الابن الوحيد للكنيطور كما قضوا على فرقة قشتالية أخرى، على رأسها البرهانس.
 وفي سنة 495هـ/1101م تمكن المرابطين من استرداد بلنسية كليا².

¹ - حمدي عبد المنعم محمود حسين، المرجع السابق، ص 72.

² - ابن عذارى المراكشي، المصدر السابق، ص 43.

المبحث الثاني: استتجاد الأندلس بالموحدين

نجح الموحدون في إسقاط دولة المرابطين بعد سلسلة طويلة من الصراع المرير استخدم فيه الطرفان مختلف الخطط ضد بعضهما البعض، إذ أن خطط الموحدين كانت أحكم من خطط المرابطين، فقد قضوا على اقتصاديات دولة المرابطين وهذا الوضع شجع النصارى على تشديد الضغط على المرابطين لتحويل المعركة لصالحهم.

1- الأندلس في ظل الموحدين

منذ وفاة يوسف بن تاشفين وتولي ابنه علي زمام الأمور في الأندلس بدأت شخصية الدولة المرابطية تهتز وتفقد هيبتها في أعين الرعية، وذلك بسبب أمير الدولة علي بن يوسف بن تاشفين الذي كان يميل إلى العلم أكثر من الحكم إذ أنه كان أقرب رجال التصوف منه إلى رجال الحكم¹. يضاف إلى هذا قوة نفوذ رجال الدين واشتداد طمع الأمراء والحكام المرابطين وتأثير المرأة المرابطية وانحيار الحالة الاقتصادية، إضافة إلى الهزة العنيفة التي لقيتها الدولة على أيدي الموحدين²، مما أدى استنفاد مواردها الاقتصادية وسحب جيوشها من الميادين الأندلسية وتركيزها ضد الموحدين، ثم بتلقي الضربات المتتالية والهزائم المتكررة، كل تلك العوامل عملت على التمهيد لظهور الثورة ضد المرابطين، وكانت الأندلس من تلك الجهات التي ظهرت فيها الثورة واضحة ضدهم³. وفي الوقت الذي كانت فيه أحوال الدولة المرابطية مضطربة⁴، كانت مملكة قشتالة أكبر مملكة في اسبانيا وأعظمها قوة وأكثرها موارد من الناحيتين، البشرية والاقتصادية.

وقد منح ملكها ألفونسو السابع، أو ألفونسو ريمونديس الإمبراطورية سنة 1135م، بالكنيسة الكبرى إلا أن هذا التتويج الإمبراطوري كان ظاهرياً، محاربة عدوهم المشترك مسلمي الأندلس تحت

¹ - يوسف أشباخ، المرجع السابق، ج2، ص 206.

² - الموحدين: قامت على أنقاذ دولة المرابطين (454-543هـ/1062-1148م) ويعتبر المهدي بن تومرت (647هـ/1249م)، الزعيم الروحي والمؤسس لهذه الدولة، ينظر: المراكشي عبد الواحد، المصدر السابق، ص 272.

³ - عقيلة الغنای، قيام دولة الموحدين، جامعة قاريونس بنغازي، ليبيا، 1988، 2008، ط1، ص 56.

⁴ - معمر الهادي القرقوطي، جهاد الموحدين في بلاد الأندلس، (541-692هـ/1146-1233م)، دار هومة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2005، د.ط، ص 80.

شعار سموه بحركة الاسترداد، حاولوا بهذا الشعار ابتلاع الأندلس المسلمة مستغلين حالة الضعف التي كانت عليها دولة المرابطين وصراعها مع دولة الموحيدين¹، بالإضافة إلى ميلاد دولة البرتغال التي ظهرت على مسرح الأحداث في هذه الفترة بعد ما كانت كونتية وراثية تابعة لمملكة ليون، وفي أوائل القرن الخامس هجري طمعوا في الاستقلال عند اسبانيا وتحقق ذلك على يد ألفونسو السابع².

الذي استطاع الانتصار على الأسبان، وأخذ في توسعه على حساب أراضي المسلمين وأعلن نفسه ملكا سنة (535هـ/1140م)، واعترفت باستقلال البرتغال من طرف ملك ليون وقشتالة سنة (538هـ/1143م) ومنه بدأت روح التعصب تقوى واستحدثت وسائل منظمة ضد الحكم العربي الإسلامي، والمتمثلة جماعة الفرسان الدينية والتي سميت بالجماعة المحاربة الجديدة سنة (552هـ/1158م)³.

وقد اتسمت الحروب التي قامت بها الممالك والإمارات الاسبانية ضد مسلمي الأندلس في هذه الفترة بالصفة الصليبية، لحملهم شعار الصليب، لأن عدوهم فيها المسلمون ومن أهم هذه الحروب الحملة التي قام بها ألفونسو ريمونديس، وشاركت فيها نافارا وأراجون وجنوة وبيزة ضد المرية وتمكنت من الاستيلاء عليها⁴.

¹ - معمر الهادي القرقوطي، المرجع السابق، ص 80.

² - حسين مؤنس، رحلة الأندلس من بداية المرسى إلى نهاية العددين، القاهرة، الشركة العربية للنشر والتوزيع والطباعة، 1963، ص 395/ إبراهيم حركات، المغرب عبر التاريخ، دار البيضاء، دار الرشاد الحديثة، 1984، ط1، ج1، ص 265.

³ - معمر الهادي القرقوطي، المرجع السابق، ص 81.

⁴ - محمد عبد الله عنان، دولة الطوائف، ص 312.

بعد ما كانت تحت حكم ابن مردنيش¹ الذي كان منشغلا في محاربة المرابطين، فلم يستطع الدفاع عنها ودخلها النصارى سنة (542هـ/1147م) بعد صمود دام ثلاثة أشهر²، توفي عند دخوله المرية عدد كبير من المسلمين منهم العالم الجليل الحافظ أبو محمد عبد الله الرشاد المري³.

قام ألفونسو السابع بالاستيلاء على شنترين وأشبونة وبعد أيام قليلة من الاستيلاء على المرية، واصل ألفونسو استيلاءه على مدن الأندلس، فاستولى على شنترين الذي مهد له السبيل لمهاجمة أشبونة، في يد البرتغال حدثا بالغ الأهمية لا يقل أهمية عن سقوط طليطلة سنة 478هـ/1085م، وسقوط سرقسطة 512هـ/1118م، استطاعت البرتغال أن تنتزع من المسلمين مفتاح نهر التاجه⁴.

واصل النصارى حركة الاسترداد إذ أنها بلغت أوجها، بعد استيلائهم على اشبونة، فحاصروا طرطوشة برا وبحرا لمدة ستة أشهر، بعد أن فقد أهلها أي أمل من أي مساندة فسقطت سنة 543هـ⁵، وبعدها أخذت مدن الثغر الأعلى تتساقط الواحد تلو الأخرى في يد النصارى، حيث هاجمت القوات الصليبية المتحالفة بقيادة الكونت رامون برنجير مدينة لاردة، ثم تلتها مكناسة وبذلك انتهت سيادة المسلمين في الأندلس⁶.

تلك كانت حالة اسبانيا النصرانية وحال الأندلس الإسلامية في الفترة التي سبقت مجيء الموحدين في أواخر العصر المرابطين، والتي تعرف بعصر ملوك الطوائف الثاني، ولاية خاضوا حربا ضد

¹ - ابن مردنيش: هو حاكم بلنسية في أواخر الموحدين بالأندلس، وينتسب محمد بن سعد إلى الأصول العربية وكان والده سعد بن محمد واليا للمرابطين على أفراغه، ينظر: ابن خلدون، العبر، المصدر السابق، ج4، ص 168، عقلية الغناني، المرجع السابق، ص 88.

² - ابن الأثير، الكامل في التاريخ، المصدر السابق، ج11، ص 221.

³ - المقري، المصدر السابق، ص 206.

⁴ - يوسف أشباخ، المرجع السابق، ج2، ص 226.

⁵ - المرجع نفسه، ص 227.

⁶ - ابن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، المصدر السابق، ج2، ص 518.

بعضهم البعض في سبيل تحقيق أطماعهم مستنجدين بعدوهم اللدود، والنصارى يطمعون في طرد المسلمين من الأندلس شعارهم في ذلك الصليب¹.

2- معركة الأرك:

وقعت معركة الأرك² في التاسع من شهر شعبان سنة (591هـ/1195م)، عند هذا الحصن الذي يقع في جنوب طليطلة، وفي ذلك التقت الجيوش الإسلامية مع جيوش النصارى³، وكان ألفونسو الثامن قد أعد جيشه بعد أن استعان بمملكتي ليون ونافار، في قوة يبلغ قوامها خمسة وعشرين ألفاً ومائتي ألف نصراي، وقد أحضروا بعض جماعات من اليهود لشراء أسرى المسلمين، بعد انتهاء المعركة لصالحهم ليتم بعد ذلك بيعهم في أوروبا⁴.

وعلى الجانب الإسلامي فقد أعد أبو يوسف يعقوب المنصور الموحدى جيشاً كبيراً، بلغ قوامه مائتي ألف مسلم⁵، كما أنه قام بعقد مجلساً استشارياً يتوضح في الآراء، والخطط المقترحة في هذا الشأن ولم يقتصر هذا المجلس على الموحدين فحسب بل شمل زعماء الأندلس أمثال عبد الله بن صناديد، وكان هذا أمراً جديداً على دولة الموحدين التي كانت تعتمد على جيوش المغرب الإسلامي، فقد ضم أبو يوسف يعقوب المنصور قوة الأندلس إلى قوة المغاربة والبربر القادمين من الصحراء⁶.

¹ - معمر الهادي القرقوطي، المرجع السابق، ص 81.

² - الأرك: حصن على بعد عشرين كيلو متر من الشمال الغربي من قلعة رياح على أحد فروع واد آنة، ومحلها اليوم غرب المدينة الإسبانية الحديثة والمدينة الملكية، والأرك نقطة الحدود بين قشتالة والأندلس في حينه، ينظر: شوقي أبو الخليل، علماء الأندلس ابتدعاتهم المتميزة وأثرها في النهضة الأوروبية، دار الفكر، دمشق، سوريا، د.ت، د.ط، ص 54.

³ - ابن الأثير، المصدر السابق، ج10، ص 237، ابن أبي الزرع، المصدر السابق، ص 266.

⁴ - ابن خلدون، المصدر السابق، ج6، ص 245.

⁵ - راغب السرجاني، قصة الأندلس من الفتح إلى السقوط، مؤسسة إقرأ للنشر والتوزيع والترجمة، القاهرة، 2011، ط1، ج1، ص 590.

⁶ - الناصري، المرجع السابق، ج2، ص 187.

أما عن الخطة التي اتبعها الأمير الموحدى فقد جعل أمير الجيش أبو يحيى الأندلسى فى الميمنة، وجعل زناتة والمصامدة والعرب وسائر قبائل المغرب فى الميسرة وجعل المتطوعة والأغزاز (الممالك المصرىون) والرماة فى المقدمة، وبقي هو فى قلب قبيلة هنتاة¹.

وفى صباح يوم المعركة، أذاع يعقوب، بين سائر الجند، لكى يذكرى حماستهم للقتال، خير حلم رآه فى الليلة السابقة، مفاده أنه رأى فى منامه فارسا نبيل الطلعة، على فرس أبيض يخرج من باب فتح فى السماء، ويده راية خضراء قد انتشرت فى الأفاق، يقول له أنه من ملائكة السماء السابعة، وإنه جاء ليبشره بالنصر بحول الله²، كان ملك قشتالة منظم لجيشه أحسن تنظيم، وكانت قلعة الأرك تحميه من جانب، ومن الجانب الآخر بعض التلال ولا يمكن الوصول إليه إلا بواسطة طرق ضيقة ووعرة³.

ولما تقدمت صفوف المسلمين المهاجمة، إلى سفح التل الذى يحتله ملك قشتالة محاولة اقتحامه بتشجيع من كلمات قائدهم المنصور الموحدى، انقض عليهم زهاء سبعة أو ثمانية آلاف من الفرسان القشتاليين كالسيل الجارف لكن المسلمين ردوا هجماتهم مرتين⁴.

إلا أنهم فى المرة الثالثة استنفذ العرب والبربر جميع قواهم، وأرغم الباقون على الفرار، ولقى آلاف من المسلمين مصرعهم فى تلك الصدمة، ومنهم القائد العام أبو يحيى ابن أبى حفص، الذى سقط وهو يقاتل بمنتهى البسالة⁵.

وهنا اعتقد النصارى أن النصر قد حالفهم، بعد أن حطموا قلب جيش الموحدين، ولكن الأندلسيين وبعض بطون الزناتة، وهم المتمركزون فى الجناح الأيمن، بقيادة عبد الله بن ضايد، هجموا على قلب الجيش النصارى، وكان يتولى قيادته ملك قشتالة بنفسه، يحيط به عشرة آلاف فارس فقط،

¹ - الناصرى، المرجع نفسه، ص 189، ابن أبى الزرع الفاسى، روض القرطاس، المصدر السابق، ص 226.

² - ابن أبى الزرع الفاسى، المصدر نفسه، ص 247.

³ - يوسف أشباخ، المرجع السابق، ج 2، ص 87.

⁴ - ابن الأثير، المصدر السابق، ج 12، ص 44، ابن خلدون، المصدر السابق، ج 6، ص 245.

⁵ - ابن الأثير، المصدر نفسه، ص 12، ابن خلدون، المصدر نفسه، ص 245.

منهم فرسان الداوية وفرسان قلعة رباح¹، فنشبت معركة حامية بين الفريقين، استبدل النصارى الضعف في العدد بالصمود والشجاعة، حتى أنه لما هاجم القائد الموحي القشتالين واضطروهم إلى الفرار، لم يغادر ألفونسو وفرسانه مكانهم لأنهم كانوا عازمين على الموت بدل الهزيمة والفرار. استمرت المعركة والفريقان يتقاتلان تحت سحب كثيفة من الغبار، وصياح الجنود، وأنين الجرحى، ومع أن الموحيين كانوا يتقدمون فوق أكداس من حيث جندهم، إلا أنهم أيقنوا بالنصر وعلموا على إعلاء كلمة "لا إله إلا الله" محمد رسول الله لا غالب إلا الله². وبالطبع انتصر المسلمون وانتهت معركة الأرك بهزيمة النصارى وسقط منهم في القتال ثلاثون ألف قتيل، واستولى المسلمون على معسكرهم بكل ما فيه من المتاع والمال واقتحموا حصن الأرك وقلعة رباح³.

وسرعان ما رفع انتصار الأرك شهرة الموحيين الحربية في كل مكان، وأمر يعقوب بإذاعة الخبر من منابر المساجد في جميع أنحاء مملكته الشاسعة، وخصص خمس الغنائم بعد أن وزع باقيها على الجنود لبناء مسجد فخيم في إشبيلية وبناء حصن كبير في مراكش لتخليد ذكر الموقعة⁴.

3- نتائج المعركة:

تعتبر معركة الأرك من أهم المعارك التي شهدتها الأندلس في عهد الموحيين إذ أنها منحت حياة جديدة، تمخض عنها آثار ونتائج من أهمها:

أ- على مستوى الخارجي:

كان من أهم انتصارات الأرك تبديد جيش النصارى بين القتل والأسر فقد قتل منهم على حسب المقرئ في كتابه نفع الطيب حوالي ستة وأربعين ألفاً ومائة ألف قتيل من أصل خمسة وعشرين ألف ومائتي ألف مقاتل، وكان عدد الأسرى بين عشرين وثلاثين ألف أسير⁵.

¹ - ابن عذارى المراكشي، المصدر السابق، ص 160، ابن الأثير، المصدر السابق، ص 35-44.

² - يوسف أشباخ، المرجع السابق، ص 89.

³ - ابن أبي الزرع، روض القرطاس، المصدر السابق، ص 145.

⁴ - المصدر نفسه، ص 52.

⁵ - المقرئ، المصدر السابق، ج 1، ص 443.

- وقد منى عليهم المنصور بغير فداء، إظهار عظمة الإسلام ورأفته بهم، وعدم اكتراثه بقوة النصارى¹.

- حدوث صراعات شتى بين ليون ونافار من ناحية وبين قشتالة من ناحية أخرى، فقد ألقى عليهم ألفونسو² الثامن (ملك قشتالة) مسؤولية الهزيمة، وترتب عن هذا أيضا عقد معاهدة بين المسلمين وقشتالة على الهدنة³ ووقف القتال مدة عشرة سنوات⁴، تمكن من خلالها المنصور من ترتيب أموره في بلاد الموحدين⁵.

ب- على المستوى الداخلي:

حصد المسلمون الكثير من الغنائم لا تعد ولا تحصى وقد بلغت على حسب المقرري في كتابه نفخ الطيب، ثمانين ألف من الخيول، ومائة ألف من البغال، وما لا يحصى من الخيام⁶. وقد وزع المنصور هذه الأموال الضخمة وهذه الغنائم كما كان يفعل الرسول صلى الله عليه وسلم على الجيش أربعة أخماسها، أما باقي الأموال فقد استخدمت في بناء المراكز الثقافية كمسجد جامع الكبير في إشبيلية⁷.

والأهم من ذلك النصر المعنوي الكبير الذي ملأ قلوب المسلمين في مشارق الأرض ومغاريه، فقد ارتفع نجم دولة الموحدين كثيرا، وارتفعت معنويات الأندلسيين لدرجة أن قوة النصارى هانت عليهم وراحوا يعتقدون الرقاب ويخرجون الصدقات.

¹ - ابن أبي الزرع، روض القرطاس، المصدر السابق، ص 229.

² - ألفونسو الثامن، يدعى ألفونسو النبيل، وشكلت وفاته مقدمة لتوحيد الممالك النصرانية الإسبانية، ينظر: محمد عبد الله عنان، ع3، المرجع السابق، ص 87.

³ - الهدنة: قد اختلفت المؤرخين في مدة الهدنة فالبعض يقول أنها خمس سنوات، كابن لأثير في كتابه الكامل في التاريخ، ج10، ص 238.

⁴ - يوسف أشياخ، المرجع السابق، ص 238.

⁵ - عبد الواحد المراكشي، المصدر السابق، ص 360.

⁶ - المقرري، المصدر السابق، ج1، ص 443.

⁷ - ابن أبي الزرع الفاسي، روض القرطاس، المصدر السابق، ص 229.

صنف إلى ذلك استمرار حركة الفتوحات الإسلامية، واستطاع المسلمون فتح بعض الحصون ومحاصرة طليطلة¹.

4- معركة حصن العقاب وآثارها:

كان لموقعة الأرك آثار بعيدة المدى في تاريخ الأندلس لا تقل عن الأثر الذي تركته واقعة الزلاقة، فقد عادت الأندلس إلى المسلمين هيبتهم في هذه البلاد وضعف أمر النصارى، فبعد هذه الواقعة أرسل المنصور فرقا من جيشه، استعادت الكثير من بلاد غرب الأندلس، لكنه لم يجنوا ثمرة نصره فقد كان فقد كان في استطاعته تحرير طليطلة وغيرها من البلاد .

وكف عن محاربة النصارى، لذلك أعطى الفرصة لألفونسو الثامن لإعادة تنظيم قواته واكتفى المنصور بتنظيم إدارة الأندلس وجنح إلى السلم².

خلف محمد بن عبد الله الملقب بالناصر أباه (590هـ-610هـ/1196م-1213م) كان شابا سريع الاندفاع مستبدا بالأمور، وفي عهده انتهت ثورة ابن غانية واستولى محمد بن عبد الله على المغرب الأوسط سنة (600هـ/1203م)، وبعد ذلك بعامين، انتصر الموحدون انتصار رائعا على بني غاني، وقضوا عليهم نهائيا قرب قابس³.

ضعف أمر المسلمين في الأندلس بسبب انشغال الخليفة الموحد الرابع أبو محمد عبد الله الناصر بقمع الفتن في المغرب الأقصى، وكف الموحدين عن إرسال الجيوش إلى الأندلس لتعزيز مركز المسلمين هناك، وقد شجع ذلك ألفونسو الثامن - ملك قشتالة - على شن الغارات على بلاد المسلمين في الأندلس.

انتقاما من هزيمة الأرك، فأنتهى خلافته مع ملكي نافارا وأرجوان واستنجد بالبابوية، وكون قوة مسيحية ضاربة تستطيع محاربة المسلمين وتوجيه أشد الضربات لهم⁴.

¹ - عبد الواحد المراكشي، المصدر السابق، ص 360، ابن خلدون، المصدر السابق، ج6، ص245.

² - عصام الدين عبد الرؤوف الفقي، تاريخ المغرب والأندلس، مكتبة النهضة الشرق، القاهرة 1984، د.ط، ص275.

³ - المرجع نفسه، ص 275.

⁴ - نفسه، ص 276.

ولما علم أبو محمد عبد الله الناصر بذلك قرر إخضاع ألفونسو الثامن، ومحاربه وأعد لهذا الغرض حملة قوية أحسن إعدادها، وأمدّها بالأسلحة والعتاد، وعبرت الحملة إلى الأندلس سنة 607هـ/1210م، وعسكر الجيش الموحدى فى اشبيلية، وتوافد على جيشه الأندلسيون من كل صوب وحدب¹.

وفى سنة 608هـ (أواخر يوليو 1211م) خرج الناصر من اشبيلية، متجها إلى جيان، فأبدت وبياسة²، ثم سار شمالا نحو قلعة شلبطرة.

وكانت هذه القلعة تقع على ربوة عالية على مقربة من جبل الشارات، وكانت من أكبر وأمنع قلاع تلك الناحية، يبدو من أقوال صاحب روض القرطاس، أن الناصر كان يقصد السيرتوا إلى غزو قشتالة، ولكن وزيره أبا سعيد بن جامع، أقعته بوجوب الاستيلاء أولا على قلعة شلبطرة، نظرا لمناعتها الفائقة وأهمية موقعها³.

استطاع الموحدون الاستيلاء على شلبطرة وقتلوا بها من النصارى 400، وأضرموا النيران فيها، واستولوا على حصن قريب منها يسمى "بحصن اللج"⁴.

بعد افتتاح شلبطرة عاد الناصر إلى إشبيلية ظافرا غانما، أما الأدفونش فقد استغاث بأهل ملته وحثهم على حماية دينهم فاستجابوا له وانثالوا عليه من كل مكان⁵. ومنهم فرسان قلعة رباح وشتت ياقب، والأسبتارية والداوية فرسان المعبد، واجتمع سائر القواميس والفرسان القشتالين، ولم يأت شهر مايو سنة 609هـ/1212م حتى اجتمع فى قشتالة من المحاربين الصليبين الذى هرعوا من جميع أنحاء أوروبا لمعاونة إسبانيا النصرانية.

¹ - المرجع نفسه، ص 276.

² - بياسة: مدينة كبيرة من الأندلس فى كورة جيان بينها وبين أبدة فرسخان، ينظر: الحموي، المصدر السابق، ج2، ص 407.

³ - ابن أبي الزرع، روض القرطاس، المصدر السابق، ص ص 155-156.

⁴ - محمد عبد الله عنان، المرجع السابق، ع3، ص 291.

⁵ - الحميري، المصدر السابق، ص 138.

حيث اجتمع من هذه الوفود الصليبية المختلفة جيش ضخم يبلغ زهاء سبعين ألف مقاتل، لمؤازرة الجيوش الإسبانية، وكانت تتألف من جيوش قشتالة وأرجون ونافاراً وأمداد من جليقية والبرتغال¹.

وكان الموحدون من جانبهم يقومون بمثل هذه الاستعدادات، وقد استنفر الناصر عقب عودته من غزوة شلبطرة إلى إشبيلية الناس من سائر الجهات، ليضعف حشوده، وليدعم جيوشه².

4-1- حصار قلعة رباح:

وفي اليوم الخامس في بدء السير من طليطلة في 24 من حزيران (يونية 1212م) هاجم جنود النصارى حصن (مجلون) وأبادوا جميع من فيه، بعد ذلك ساروا إلى قلعة رباح، وكانت بها حامية قوية من الموحدين ولقي النصارى في عبور واد يانة الذي تقع عليه المدينة صعاباً كبيرة إذ كان المسلمون قد نثروا على جانبي الوادي الصنابير والخوازيق الحديدية³.

هاجمت الجيوش النصرانية قلعة رباح في جوانبها الثلاث المنيعة، حتى سقطت المدينة في أيديهم، وذلك بعد أن أبدى ملك الأروغان والمحاربون الوافدون في اقتحام المدينة شجاعة عظيمة، إذ كان من المعروف تحتوي على أموال هائلة وكميات عظيمة من المؤن⁴.

عندما سقطت قلعة رباح ورجع قائدها الذي بذل ما في وسعه من أجل الإسلام والمسلمين غضب السلطان الناصر، وأمر بقتل يوسف بن قادم أبو الحجاج، ويكون بذلك قد اقترف خطأ فادحاً في حق جيش الإسلام كله⁵.

بعد الانتهاء من قلعة رباح قام الأسبان في صباح 16 يوليو بترتيب جندهم لخوض المعركة فربط بعضهم على سفح الجبل، والبعض فوق الرابي، تزعم ألفونسو الثامن ملك قشتالة قلب الجيش

¹ - يوسف أشباخ، المرجع السابق، ج2، ص: 350-360.

² - محمد عبد الله عنان، المرجع السابق، ع3، ص ص 292-293.

³ - يوسف أشباخ، المرجع السابق، ج2، ص 113.

⁴ - شوقي أبو الخليل، العقاب، دمشق، بيروت، دار الفكر، 1979، د.ط، ص 32.

⁵ - المرجع نفسه، ص 36.

مع احتفاظه بنوع من الإشراف على الجيش كله، وكان القلب يضم أربعة فرق، الفرقة الأولى من سكان الجبال القشتالية بقيادة ديجولوز، والفرقة الثانية من فرسان قلعة رباح، وشتت ياقب، والاستبتارية والداوية يقودها الكونت جونزا لونونيزدي لارا، والفرقة الثالثة تتألف من جند وفرسان قشتالة القديمة واشنترويش يقودها الكونت رديك دياز كاميروس، والفرقة الرابعة من الجند الاحتياطي من طليطلة وبعض قوات ليون ويقودها ألفونسو الثامن نفسه.¹

أما جيش الموحدين قسمه الناصر تجاه جيش النصارى في سهل "تولوز" وفق الأوضاع الموحدية إلى 5 فرق:

كانت الفرقة الأمامية تتألف من المتطوعة وتتألف من المتطوعة ويقدر عددهم بـ 160 ألف مقاتل، واصطفت القوات الأندلسية في الميمنة، والقبائل البربرية في الميسرة، وأما القلب والقوات الاحتياطية فكانت تتألف من الجند الموحدين.²

بعد التقاء الجيشان استطاعت مقدمة النصارى أن تخرق الجيش الموحد النظامي، الذي استطاع أن يصد تلك الهجمة، معنويات الجيش الإسلامي هبطت نتيجة قتل الآلاف منهم على عكس النصارى.³

وحين رأى ألفونسو الثامن ذلك أطلق القوات المدد المدربة لإنقاذ مقدمة النصارى، وبالفعل كان لها أثر كبير وعادت من جديد الكرة للنصارى، وفي هذه الأثناء فرت ميمنة المسلمين من أرض الموقعة، ألتف النصارى حول جيش المسلمين، وبدأت الهلكة فيهم، فقتل الآلاف منهم، بسيوف النصارى في ذلك اليوم، والذي سمي بيوم العقاب أو معركة العقاب.⁴

¹ - يوسف أشباخ، المرجع السابق، ج2، ص 117.

² - يوسف أشباخ، المرجع السابق، ج2، ص 118-119.

³ - شوقي أبو خليل، العقاب، المرجع السابق، ص 45.

⁴ - العقاب: تقع شمال شرقي فحص البلوط وشمالي بياسة وأبدة بالغرب، من حصن سالم، وقعت فيه المعركة الشهيرة وهي تعرف بالتواريخ الإسبانية بلاس نافاس دي تولوسا، عبد الواحد المراكشي، المصدر السابق، ص 230.

هزم المسلمين هزيمة قاسية وفر الناصر لدين الله وهو يقول "صدق الرحمن وكذب الشيطان"¹ حيث دخل الموقعة وهو يعلم انه منصور بعده فعلم أن هذا من إلقاء الشيطان وكذبه، وصدق الرحمن: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾ التوبة: الآية: 25.²

4-2 نتائج معركة حصن العقاب:

- فرار الناصر لدين الله من أرض المعركة، وأنه لم يمكث بعد موقعة العقاب في مدينة بياسة وأبدة، تاركهما بلا حماية متجها إلى إشبيلية³.
- سقوط العديد من المدن الأندلسية: بياسة وأبدة⁴.
- تدهور حال المسلمين كثيرا في كل بلاد المغرب والأندلس على سواء، حتى قطع المؤرخون بأنه بعد العقاب ما كنت تجد شابا صالحا للقتال فكانت موقعة واحدة قد بددت وأضاعت دولة في حجم وعظم دولة الموحدين⁵.
- انسحاب الناصر لدين الله أكثر مما كان عليه، فقد انسحب من إشبيلية إلى بلاد المغرب الإسلامي ليعتكف في قصره، مستخلفا ابنه وهو لم يتجاوز 15 سنة.
- وفاة الناصر لدين الله بعد هذا الاستخلاف بعام واحد في سنة 610هـ 1214م عن عمر لم يتجاوز 34 سنة⁶.
- ومن جديد وكما حدث في عهد ملوك الطوائف تضييع الأمانة، ويسد الأمر لغير أهله، وتتوالى الهزائم على المسلمين بعد سنوات طويلة من العلو والسيادة والتمكين لدولة الموحدين⁷.

¹ - الناصري، المرجع السابق، ج2، ص 224.

² - سورة التوبة، الآية 25.

³ - ابن أبي الزرع، المصدر السابق، ص 240.

⁴ - راغب السرجاني، المرجع السابق، ص 218-219.

⁵ - المقرئ، المصدر السابق، ج1، ص 446.

⁶ - عبد الواحد المراكشي، المصدر السابق، ص 404، والذهبي الإمام شمس الدين محمد ابن أحمد الذهبي، تح: شعيب

الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة بيروت، 1402، ط2، ص522، ابن خلدون، المصدر السابق، ج6، ص 250.

⁷ - المقرئ، المصدر السابق، ج2، ص 382.

اضطرت الأندلس بعد سقوط الدولة الأموية، وتنافس أمراء الأقاليم في حكم الأندلس، هنا انتهزت المماليك النصارية في شمال إسبانيا وانقضوا على مدن الأندلس، منتهزين فرصة النزاع بين ملوك الطوائف.

حاول المرابطون أن ينقذوا المسلمين في الأندلس وتجسد ذلك من خلال معركة الزلاقة التي رفعت من شأن المسلمين وأعادت لهم هيبتهم، لكن سرعان ما خاب أملهم في معركة لبيط التي فشلت بسبب ملوك الطوائف، ثم الموحيدين من بعدهم والذين كانت مسكناتهم وقتية وتمثلت في معركة الأرك التي مددت نوعا ما في عمر الأندلس إلا أن ذلك لم يستمر طويلا حتى جاءت المعركة التي انقلبت فيها الموازين لصالح النصارى وسقطت فيها معظم مدن الأندلس ألا وهي معركة حصن العقاب.

ظل أمر الأندلس والنصارى في قوة حتى لم يعد للعرب سوى غرناطة.

الفصل الثاني

حروب الاسترداد في عهد بني الأحمر

المبحث الأول: الأوضاع السياسية لدولة بني الأحمر

المبحث الثاني: رد فعل دول المغرب الإسلامي من حروب الاسترداد

تمهيد:

بعد سقوط الدولة الموحدية إثر موقعة العقاب، ثم سقوط مدن المسلمين الواحدة تلو الأخرى، منها قرطبة سنة 633هـ حاضرة الإسلام وعاصمة الخلافة وصاحبة أكبر مسجد في العالم، وسقطت جيان في سنة 634هـ، وإشبيلية سنة 646هـ، وقادس وشريش على إثر ما يعرف بالحرب أو الحركة الاسترداد وبذلك لم يبق في يد المسلمين سوى منطقة غرناطة لتكون آخر معقل للمسلمين.

المبحث الأول: الأوضاع السياسية لدولة بني الأحمر

استطاعت دولة بني النصر أو بني الأحمر أو مملكة غرناطة، أن تحقق الكثير من الانجازات سواء على الصعيد الحضاري أو السياسي، بالرغم من الفترة العصيبة التي نشأت فيها، وهذا ما جعلنا نتطرق إلى أهم الصعوبات التي وجهتها في تأسيس دولتها.

1- صراع بني الأحمر مع بني هود:

قامت دولة بني الأحمر¹، التي امتد حكمها إلى ما يزيد عن القرنين ونصف من الزمن (635-897هـ/1238-1492م)²، وكان على يد عبد الله محمد بن يوسف بن النصر³، ولقد سمي بابن الأحمر ولم يكن هذا اسما له، بل لقباً له ولأبنائه من بعده وحتى نهاية حكم المسلمين⁴، ولقب أيضاً بأبي دبوش وهو كبيرهم إلى نهاية دولة الموحدية، فسميت الدولة باسمه.

¹ - بني الأحمر: أصلهم من أرجونة من حصون قرطبة، ولهم فيها سلف من أبناء الجند ويعرفون ببني النصر، وينتسبون إلى سعد بن عبادة سيد الخزرج، وكان كبيرهم لآخر دولة الموحدية محمد بن يوسف بن نصر، ويعرف بالشيخ، وأخوه إسماعيل وكانت له وصاية في ناحيتهم، ينظر ابن خلدون، المصدر السابق، ج7، ص 447.

² - أحمد مختار العبادي، تاريخ المغرب والأندلس، المرجع السابق، ج1، ص 340.

³ - بن الأحمر (649-671هـ/1232-1273م)، يعتبر المؤسس الحقيقي لدولة بني الأحمر ولد في أرجونة، اهتم بشؤون الحرب، استطاع بن الأحمر توطيد سلطنة وسط نفوذه بسرعة كبيرة، بالرغم من هجمات بن هود عليه، ينظر أسعد حومد، محنة العرب في الأندلس، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1988، ط2، ص 123.

⁴ - محمد عبد الله عنان، دولة الموحدية، المصدر السابق، ج7، ص 42.

كانت غرناطة في ذلك الحين ملجأ وملاذاً أخيراً للعرب والمسلمين في الأندلس بسبب سقوط المدن الشمالية بيد النصارى، حيث فضل الكثير من المسلمين الهجرة إلى مملكة غرناطة على الخضوع لسلطة النصارى¹.

لذلك وقبل التطرق إلى الصراع لابد من إعطاء لمحة عن بني هود والكيفية التي وصلوا بها إلى الحكم، فمع بداية القرن السابع الهجري الموافق للثالث عشر ميلادي أضحت دولة الموحيدين. التي كانت لها الكلمة العليا ببلاد المغرب والأندلس لفترة من الزمن تعرف الضعف والهوان²، بسبب شدة الضربات التي كانت تتلقاها من الممالك النصرانية، ضف إلى ذلك الثورات المناهضة لهم، كثورة ابن مردنيش بشرق الأندلس، وثورة أبي سعيد عثمان بن الحكم الأموي بمنقة³.

تعد ثورة محمد بن يوسف بن هود الجذامي من أبرز ثورات التي ساهمت بدور كبير في زوال دولة الموحيدين واستطاع الاستيلاء على مناطق واسعة من الأندلس⁴.

وابن هود هذا من أعقاب بني هود أحد على أسر ملوك الطوائف، وقد ثار في سنة 625هـ/1228م، بمكان يعرف بالصخيرات، على الموحيدين ودخل مرسية⁵.

واستولى على مناطق هامة في الأندلس، مثل الجزيرة الخضراء، وجبل الفتح (جبل طارق)⁶، وفي هذه الفترة ظهر رجل آخر على الساحة السياسية والعسكرية بالأندلس، ويحمل نفس اسمه هو

¹ - ابن الخطيب، كناسة الدكان بعد انتقال السكان، تح محمد كمال شتانة ومر: حسين محمود، المؤسسة المغربية العامة للتأليف والنشر، القاهرة، د.ت، د.ط، ص 17.

² - عبد الواحد المراكشي، المصدر السابق، ص ص 235-236.

³ - ابن الخطيب، أعمال الأعلام، القسم 02، المصدر السابق، ص ص 177-270.

⁴ - ابن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، المصدر السابق، ج 2، ص ص 90-93.

⁵ - ابن خلدون، العبر، المصدر السابق، ج 4، ص 216.

⁶ - جبل طارق: عرف عند اليونانيين القدامى باسم أعمدة هرقل، ولما جاء الفتح العربي الإسلامي إلى هذه المنطقة أطلق عليه عليه أسماء عديدة منها مضيق-مجاز-أو خليج أو جبل طارق وهي التسمية المشهورة بها حالياً، ينظر: أحمد مختار العبادي، في تاريخ المغرب والأندلس، المرجع السابق، ج 1، ص 12.

محمد بن يوسف بن الأحمر، فدخل الطرفان في صراع ونزاع كبير بحيث اصطدما في معارك كثيرة بقرطبة واشبيلية، ومناطق أخرى من الأندلس حيث انهزم في أغلبها بن هود¹. واستمر الصراع حتى بعد تأسيس مملكة بني الأحمر بغرناطة².

2- تأسيس دولة بني الأحمر.

يعود تأسيس دولة بني الأحمر وظهورها على مسرح الأحداث الأندلسية، إلى ضعف دولة الموحدين، وتساعد عدة الهجمات النصرانية على المدن الأندلسية³، وفي هذه الظروف العصيبة خرج بن يوسف بن الأحمر بعدما اجتمع عليه الأهل والأحباب والأنصار في مدينة أرجونة⁴، وبويع له بالإمارة في 26 من رمضان سنة 639هـ ودعا لصاحب إفريقية (تونس)⁵ أبي زكريا الحفصي⁶. وهو الذي رده الشاعر ابن الآبار القضاعي في قصيدته الشهيرة التي مطلعها:

أدرك بخيلك خيل الله أندلسيا إن السبيل إلى منجاتها درسا⁷

¹ - ابن خلدون، العبر، المصدر السابق، ج4، ص 218.

² - ابن الخطيب، رقم الحلل في نظم الدول، المطبعة العمومية، تونس، 1316هـ، د.ط، ص 108.

³ - المصدر نفسه، ص 108.

⁴ - ابن خلدون، العبر، المصدر السابق، ج4، ص 218.

⁵ - تونس: مدينة بإفريقية، سميت تونس بأن المسلمين لما افتتحوا إفريقية نزلوا بإزاء صومعة راهب بترشيش كان هناك ويأنسون ويأنسون بصمغته فيقولون هذه الصومعة تأنس ولقبوها، ينظر، الحميري، المصدر السابق، ص 143/ابن الشماع، الأدلة البينية النورانية في مفاخر الدولة الحفصية، تح وتق: طاهر بن محمد معموري، دار العربية للكتاب، تونس، 1984، د.ط، ص 37.

⁶ - أبي زكريا الحفصي: ولد بمراكش سنة 599هـ/1203م، بويع له يوم 18 من شهر رجب من عام 625هـ/1228م، 625هـ/1228م، بالقيروان ثم تجددت له البيعة يوم وصوله تونس يوم الأربعاء وهو أبو زكريا بن يحيى بن مولى أبي محمد عبد الواحد بن الشيخ الحفصي، اختصر اسمه على أمير لما استبدى بحكم إفريقية، توفي ليلة الجمعة 29 جمادى الآخرة 09 أكتوبر 1249م، وهو ابن 49 سنة، فكانت دولته 11 عاما و11 شهرا و11 يوما دفن في جامع بونة ثم نقل جسده بعد ذلك إلى قسنطينة ودفن بها، ينظر: أبو عبد الله بن الشماع، الأدلة البينية النورانية في مفاخر الدولة الحفصية، تح وتق: الطاهر بن محمد المعموري، دار العربية للكتاب، تونس، 1984، د.ط، ص ص 54-60.

⁷ - محمود شيت خطاب، قادة فتح الأندلس، المجلد الثاني، مؤسسة علوم القرآن، منار للنشر والتوزيع، دمشق، بيروت، 2004-1424، ط1، ص ص 108-109.

وكان موقف بن الأحمر من هذه الحوادث شاذاً مؤلماً، فقد كان يقف إلى جانب أعداء أمته ودينه، ليس جبا في ذلك ولا رغبة في توسيع حدوده بل حفاظاً على ما تبقى من تراث وأراضي أجداده، لتكون ملكاً له ولأحفاده من بعده.

وقد عزم على تحقيق هذه الغاية في مدينة غرناطة وما تبقى من مدن الأندلس، وهو يصانع النصراري ويتجنب الاشتباك معهم، ويشهد التهامهم لأشلاء الثغر¹ الأعلى الممزق، وقلبه يتفطر حزناً وأسى².

نظر إلى بن الأحمر من طرف إخوانه المسلمين نظرة الخاضع، الطائع لسلطة النصراري، الراضي عما يحدث في غرناطة، وهم لا يعلمون أن كل هذا كان بدافع حماية ملكه وأهل دينه وحفاظه على الوجود الإسلامي في الأندلس.

تعد سنة 635هـ/1238م السنة الفعلية لتأسيس دولة بني الأحمر، حيث دخل بن الأحمر مدينة غرناطة وبايعه أهلها فاتخذها عاصمة لدولته الناشئة، طامحاً في السيطرة على كامل بلاد الأندلس، ليخلق بذلك دولة الموحدين ويعيد إحياء مجدها وقوتها، إلا أنه واجهته صعوبات كما واجهت سابقه، والمتمثلة في ضربات الممالك النصرانية التي لا تمل ولا تكل من محاربة الإسلام والمسلمين من جهة، والثورات المناهضة له من جهة أخرى، الأمر الذي جعله يستنجد ببني مرين³، ويعهد قيادة

¹ - ثغر: و الوضع الذي يكون حداً فاصلاً بين الملمين أي بين المسلمين والكفار، وهو موضع المخافة في أطراف البلاد، ينظر، ابن منظور، لسان العرب، دار المعارف، القاهرة، د.ت، د.ط، ج1، ص 486.

² - محمود شيت خطاب، المرجع السابق، ص 110.

³ - بنو مرين: بطن من بطون قبيلة زناتة البربرية، بدأ نجمهم بظهور عندما ضعف أمر الموحدين، وبرز فيهم أبو محمد عبد الحق بن محيو المريني الذي تنسب الدولة إليه، كان مركزهم بأرض الزاب في جبل يقال له ايكجان وقد سميت دولتهم ببني مرين مرة وبالذولة الوطاسية نسبة إلى وطاس بن حجوس بن جرماط بن مرين، ينظر: محمد بن مرزوق التلمساني، المسند الصحيح الحسن في مآثر مولانا أبي الحسن، تح: ماريا خيسوس بنغر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1401هـ/1981م، ص 110، الوليد إسماعيل بن الأحمر، نثير الجمال في شعر من نظمي وأيام الزمان، تح محمد رضوان الداية، مؤسسة الرسالة، الجزائر، 1987، ط2، ص 27.

الجيوش لقواد من زناتة عرفوا في التاريخ الأندلسي باسم شيوخ الغزاة¹، حيث كان لهم دور كبير بالأندلس لا سيما في الجانب العسكري، ومن أشهرهم أسرة بني يعلي وعلى رأسهم الشيخ عثمان بن أبي العلاء إدريس بن عبد الله².

ولقد عرفت هذه المملكة بعد نشأتها تدفق العديد من المهاجرين الذين هاجروا إليها من مختلف المدن الأندلسية، كقرطبة، إشبيلية، جيان وبلنسية³، لأنها تعتبر آخر معقل وملجأ للمسلمين لذلك سعى الإسبان جاهدين للاستيلاء عليها بشتى الطرق والوسائل.

لم يستطع محمد بن يوسف استيلاء على كامل الأندلس ولا حتى تحقيق حلمه وهو إحياء مجد دولة الموحدين.

فانحصرت دولته بين الوادي الكبير شمالا والبحر المتوسط جنوبا وضمنت ثلاث ولايات كبرى وهي:

- غرناطة وأهم مدنها: غرناطة، لوشة، وادي آش.
- مالقة وأهم مدنها: مالقة، رندة، الجزيرة الخضراء.
- ألمرية وأهم مدنها: ألمرية، برجة، بييرة⁴.

03- نبذة عن الممالك النصرانية:

كان للممالك النصرانية دور كبير في تقلص رقعة الدولة الإسلامية، وفي الأندلس مع بداية حروب الاسترداد، وذلك من خلال السيطرة على أغلب المدن الإسلامية بالأندلس، ثم طرد المسلمين

¹ - شيوخ الغزاة: هم فرسان من قبلية زناتة، شاركوا في الدفاع عن غرناطة وكان يرأسهم أمير من بني مرين أو من بني عبد الحق من ملوك المغرب، وهذه العناصر البربرية دخلت إلى الأندلس منذ الفتح الإسلامي للأندلس، باعتبار الجيش الفاتح للأندلس، أغلبهم من البربر خاصة في الدولة العامرية، عندما حصد المنصور بن أبي عامر المحاربين من زناتة وصنهاجة لتصدي لهجمات النصارى، وتزايد عددهم خلال الدولة المرابطية والموحدية، ينظر: حسين مؤنس، معالم تاريخ المغرب والأندلس، مر: عادل أبو المعاصي ومحمد دياب، دار الرشاد، القاهرة، 1997، ط1، ص 448.

² - ابن الخطيب، كناسة الدكان بعد انتقال السكان، المصدر السابق، ص 263.

³ - المقرئ، المصدر السابق، ج5، ص 263.

⁴ - المصدر نفسه، ص ص 15-16.

من إسبانيا في نهاية المطاف، بالرغم من أنها (الممالك النصرانية) كانت تشهد نوع من التشتت والفرقة والصراع فيما بينها، إذ أنها في القرن الثاني عشر ميلادي، كانت خمس ممالك صغيرة وهي قشتالة، ليون والأراغون، نافار والبرتغال، لكن وفي سنة 1234م اندمجت فيما بينها وأصبحت ثلاث ممالك نصرانية.

3-1- مملكة قشتالة:

تعتبر مملكة قشتالة من أهم وأكبر الممالك النصرانية بشبه الجزيرة الإيبيرية، حيث توحدت في سنة (614هـ/1217م)، وأصبحت كل من قشتالة، جليقية، القرنطيرة، إشبيلية، طليطلة، وجيان¹. ومن أبرز ملوكها ألفونسو العاشر حيث تميز عهده بالاستقرار الداخلي، وهذا ما ساعده في ممارسة عد أعمال من بينها الحد من صلاحيات الأشراف والنبلاء سعياً لإعادة مجد الإمبراطورية الرومانية المقدسة².

وخلفه من بعده في الحكم ابنه سانشو، وكان ذلك سنة 683هـ وفي عهد هذا الأخير لم تتوقف الفوضى والاضطرابات بعرش قشتالة، فقد واجهته عدة مشاكل من بينها: الصراع مع جماعة النبلاء، فلجأ إلى عقد صلح مؤقت مع مملكة بني النصر، بهدف التفرغ لحل مشاكله الداخلية، وعلى إثر ذلك تمتعت غرناطة ببضعة أعوام من السلام والسكينة³.

وبوفاته سنة 696هـ/1296م، خلفه ولد فرناندو الرابع وكان من أعظم الحوادث في عهده هو استيلاء القشتاليين على ثغر جبل طارق سنة 772هـ⁴.

¹ - محمد عيسى الحريري، تاريخ المغرب الإسلامي والأندلس في العصر المريني، دار القلم للنشر والتوزيع، الكويت، 1408هـ/1987م، ط2، ص 238.

² - ابن أبي الزرع، روض القرطاس، المصدر السابق، ص 337.

³ - محمد عبد الله عنان، دولة الإسلام، العصر الرابع، ص ص 170-171.

⁴ - القلقشندي، صبح الأعشى، المطبعة الأميرية، القاهرة، 1915، د.ط، ج 5، ص 286.

تعاقت عدة ملوك على عرض قشتالة وصولاً إلى عهد هنري الرابع الملقب بالعاجز، لأن عهده تميز بالفوضى والركود، توفي سنة 880هـ / 1474م، وخلفته أخته إيزابيلا¹ على عرش مملكة قشتالة، والتي كان لها دوراً كبيراً في سقوط مملكة غرناطة، حيث كانت تتميز إيزابيلا بالذكاء والعزم والرفقة والتواضع، كما أنها حظيت بحب القشتاليين لها².

وما يمكن قوله عن مملكة قشتالة هو أنها كانت أكثر الممالك الحاكمة على الوجود الإسلامي بإسبانيا، لذلك سعت جاهدة للقضاء على المسلمين في وقت مبكر، إلا أن مملكة بني الأحمر حالة دون ذلك، وأخرتها عن تحقيق ما كانت تطمح إليه، فعملت (مملكة قشتالة) كل ما في وسعها للقضاء عليها³.

3-2- مملكة آراغون: (آراجون):

تعتبر القوة الثانية بعد قشتالة، ولطالما كانتا تعملان معاً للقضاء على الدولة الإسلامية بالأندلس⁴، ومن أهم ملوكها خايمي الأول 610هـ/1213م، استطاع أن يضاعف رقعة مملكته بالقضاء على دولة الإسلام في جزر البليار وبلنسية سنة 636هـ/1238م، وبذلك توفي سنة 674هـ/1238م، حيث خلفه بيدرو الثالث، وشهد عهده امتداد السلطة الأرغوانية إلى صقلية وجنوب إيطاليا، وأحاء بروفانس جنوب فرنسا، لذلك لقب بـ "الأكبر"⁵.

¹ - عبد الرحمان علي حجي، التاريخ الأندلسي من الفتح الإسلامي حتى سقوط غرناطة، د.م.ن، بيروت، د.ت، ص 528.
² - إيزابيلا: ولدت 1551، ابنة خوان الثاني ملك قشتالة، تزوجت فرديناند أمير آراغون عندما توفي أخوها أنريكي عام 1474، استلمت العرش مكانه، وبعد وحدة المملكتين أصبحت هي وزوجها يعرفان بالملكين الكاثوليكين، ينظر: جمال يحياوي، سقوط غرناطة والأوقاف، الجزائر، 2011، ط 1، ص 33.
³ - علي حسن الشطشاط، نهاية الوجود العربي في الأندلس، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، 2001، د.ط، ص 61.
⁴ - عبد الرحمان الحجي، المرجع السابق، ص 528.
⁵ - علي حسن الشطشاط، المرجع السابق، ص 62.

لكن ما لبثت آراغون أن تعرضت لموجة عنيفة من ثورات الأشراف والنبلاء وذلك بعد وفاة بيدرو الثالث سنة 684هـ / 1285م، وصعود ألفونسو الثالث على العرش، إلا أن خليفه خايمي الثاني استطاع إعادة الأمور إلى نصابها وتحسين العلاقات مع فرنسا¹. وعقب وفاته تولى على عرش مملكة آراغون عدة ملوك، حتى جاء عهد جوان الثاني 846هـ / 1442م، وعندما بلغ الثمانين من عمره وكف البصر ترك العرش لولده فرناندو الخامس، (الكاثوليك)، هذا الأخير، كان من أعظم ملوك إسبانيا النصرانية وأوفرهم عزما وهمة، تميز أيضا بمقدرة فائقة، سواء في الإدارة أو في ميادين الحرب والسياسة².

3-3- اتحاد المملكتين (الزواج السياسي):

إذا أردنا الحديث عن اتحاد مملكة قشتالة والآراغون، فيجب علينا أولاً التحدث عن سبب هذا الاتحاد وكيف تم.

لقد كان لكل من قشتالة والآراغون نفس الهدف ألا وهو تأسيس مملكة يحسب لها ألف حساب، والاستيلاء على ما تبقى من مدن الأندلس، والقضاء على الوجود الإسلامي نهائياً ولكي تتحقق هذه المصلحة، قام فرناندو بالزواج من ابنة عمه إيزابيلا³، وهذا الزواج مهد لتوحيد إسبانيا النصرانية وفي سنة 1479م، ارتقى فرناندو عرش آراجون على أثر وفاة أبيه خوان الثاني، وبذلك اتحدت الإسبانيتان في ظل عرش واحد بعد أن فرقت بينما المنافسات والخصوم أحقاباً⁴.

¹ - عاشور عبد الفتاح، المرجع السابق، ج 1، ص 549.

² - فرديناند: ولد بأراغون عام 1452م، كان يتمتع بمقدرة فائقة في الإدارة وميادين الحرب والسياسة، وقاد الحرب ضد المسلمين في غرناطة حتى سقوطها 1492م، ينظر: جمال يجياوي، المرجع السابق، ص 33.

³ - محمد عبد الله عنان، دولة الإسلام، المرجع السابق، ع4، ص 184.

⁴ - المرجع نفسه، ص 185.

من المؤسف أن نقول أنه في الوقت الذي جلس فيه فرناندو وإيزابيلا على عرش إسبانيا القوية الموحدة، كانت مملكة غرناطة تدخل في سلسلة طويلة من الحروب الأهلية، وتصارع لوحدها، وكان يجلس على عرشها وقتئذ السلطان علي أبو الحسن ولد السلطان سعد المستعين بالله¹. ما إن استقرت مملكتنا قشتالة والأراغون من الفتن والحروب الأهلية، حتى أخذت في شن الحرب على مملكة غرناطة بكل ما أوتي لها من قوة وعزم².

¹ - محمد عبد الله عنان، دولة الإسلام، المرجع السابق، ع4، ص 185.

² - علي حسن الشطشاط، المرجع السابق، ص 301.

المبحث الثاني: رد فعل دول المغرب الإسلامي من حروب الاسترداد

لقد ربطت الأندلس خلال عهد بني الأحمر عدة علاقات سياسية من بينها علاقتها مع دول العدو المقابلة بالاختلاف والتباين، وهذا راجع إلى إمكانيات المتاحة لكل دولة. فقد تمثلت بعض الإمدادات بالجيش و ببعضها آخر اقتصر على الجانب المادي، وهذا كله كان بدافع حماية الأندلس من خطر ضربات النصارى ومع سقوطها بأيديهم.

1- موقف بني مرين بالمغرب الأقصى:

كان للأندلس في عهد بني الأحمر علاقات متينة مع دولة بني مرين أكثر من أي دولة أخرى، وذلك بحكم العامل الجغرافي فلطالما كانت الأندلس إقليمًا تابعًا للمغرب من الناحية الجغرافية وحتى السياسية.

تذكر بعض المصادر على أن إقليم الأندلس هو إقليم من بلاد المغرب، ويعتبر آخر المعمور منه¹، ونظرًا لتلك السهولة في الاتصال فقد ارتبطت العدوتان من الفتح الإسلامي إلى غاية السقوط مملكة غرناطة بعلاقات متينة ومجالات عديدة، ولا سيما في عهد المرابطين ثم الموحدين وصولًا إلى المرينيين².

لقد منح بنو مرين عمرا ثانيا للأندلس، واعتبروا أمر الاعتداء عليها هو الاعتداء على بلاد المغرب.

وقد فهم الكثير من السلاطين بني الأحمر ذلك فكانوا لا يترددون في الاستنجاد بالمرينين كلما دعت الضرورة لذلك، فقد استنجد مؤسس الدولة محمد بن يوسف ببني مرين ضد أعدائهم، أوصى ولده محمد الثاني الفقيه، باستنجاد بهم إذا اقتضت الحاجة³.

ولما تولى محمد الفقيه الأمور في غرناطة نظر إلى حال البلاد والعباد، ورأى أن قوة المسلمين في بلاد الأندلس لن تستطيع أن تبقى صامدة في مواجهة قوة النصارى.

¹ - عبد الواحد المراكشي، المصدر السابق، ص 14.

² - المقرئ، نفع الطيب، المصدر السابق، ج 1، ص 340-343.

³ - ابن خلدون، المصدر السابق، ج 4، ص 220.

بالإضافة إلى أن ألفونسو العاشر، حين مات بن الأحمر ظن أن البلاد قد ضعف شأنها. وبهذا اغتتم الفرصة للهجوم على أطراف غرناطة، وما كان أمام محمد الفقيه إلا خيارا واحدا وهو الاستعانة بـيعقوب المنصور المريني¹.

فكان عبور المرينيين إلى الأندلس في صفر سنة (674هـ/1276م)، وكان قد سبق ذلك بعام إرساله خمسة آلاف جندي بقيادة ابنه للجزيرة حتى يفرغ من استعداداته للجواز².

1-1- موقعة الدونونية:

وقعت موقعة الدونونية في سنة 674هـ، وكان على رأس جيوش المسلمين المنصور المريني، الذي أخذ يحفز الناس بنفسه على القتال بقوله: "ألا وإن الجنة قد فتحت لكم أبوابها، وزينت حورها وأترابها، فبادروا إليها وجدوا في طلبها، وابدلوا النفوس في أثمانها، ألا وإن الجنة تحت ظلال السيوف، لقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدًّا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾³.

فاغتتموا هذه التجارة الراجعة، وسارعوا إلى الجنة بالأعمال الصالحة، فمن مات منكم مات شهيدا ومن عاش رجع إلى أهله سالما غانما مأجورا حميدا، لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾⁴.

أما بالنسبة للجيش النصراني كان على رأسهم أكبر قواد مملكة قشتالة يدعى دون نونيو دي لاري⁵.

¹ - ابن خلدون، العبر، المصدر السابق، ج7، ص 191.

² - المصدر نفسه، ص 192.

³ - سورة التوبة، الآية: 111.

⁴ - سورة آل عمران، الآية: 200.

⁵ - ابن أبي الزرع الفاسي، الذخيرة السننية في تاريخ الدولة المرينية، دار المنصور للطباعة والنشر، الرباط، 1972، ط2، ص

حقق مسلمون انتصارا باهرا وعظيما بالرغم من أن عددهم لم يتجاوز عشرة آلاف مقاتل، حيث قتل من النصارى ستة آلاف مقاتل، وتم أسر سبعة آلاف وثمانمائة آخرين، وقتل دون نونيو قائد قشتالة في هذه الموقعة¹.

وقد شبهه بن أبي الزرع الفاسي هذا الانتصار المحرز في موقعة الدونونية بمعركة الأرك في سنة (591هـ/1195م).

استقر المنصور عقب غزوة الدونونية بالجزيرة الخضراء حوالي خمسة وثلاثين يوما، بعد أن كان له دورا كبيرا في قهر جيوش الممالك النصرانية².

وقد تمخض عن الجواز الأول عدة نتائج كان من أبرزها ارتفاع الروح المعنوية للغرناطيين وأصبحوا في مأمن عن الخطر النصراني وذلك بعد أن تمكن أبو يوسف من الوصول إلى اشبيلية حاضرة ألفونسو العاشر ملك قشتالة³.

صحيح أن بني مرين أبلوا بلاءا حسنا في جهادهم بالأندلس، إلا أنهم لم يتلقوا صدى إيجابيا من طرف الغرناطيين وبالتحديد من محمد الفقيه بن الأحمر، الذي كانت تراوده شكوك اتجاه المرينيين وخوفه من الاستحواذ على بلاده، وأن يحدث معهم مثل ما حدث مع المعتمدين عباد وأمير المرابطين يوسف بن تاشفين⁴.

¹ - ابن خلدون، العبر، المصدر السابق، ج7، ص 193.

² - ابن أبي الزرع، الذخيرة السنية، المصدر السابق، ص 158.

³ - ابن الخطيب، اللوحة البدرية، المصدر السابق، ص 61.

⁴ - ابن الخطيب، إحاطة في أخبار غرناطة، ج1، ص ص 148-149.

ويعود سبب تخوف محمد الفقيه، إلى تحالف بني مرين مع بني أشقيلولة¹ حيث تنازل محمد أشقيلولة عن مالقة لسلطان المريني وعلى حسب ما ذكره ابن خلدون أن محمد بن أشقيلولة قال "إنني عجزت عن ضبطهما فإن لم تصل إليهما وتقيضها من يدي أعطيتها الروم ولا يمتلكها بن الأحمر"². فبعث السلطان يعقوب ولده الأمير أبا زيان واستلمها منه رغم المحاولات المتكررة من محمد الفقيه بن الأحمر في استعادتها³.

وكرر فعل على هذا التحالف، قام الملك الغرناطي بالتودّد لملك قشتالة ألفونسو العاشر، وأظهر رغبته في التعاون معه لمواجهة الطرفين المتحالفين⁴.

أدى الجواز الثاني سنة (676هـ/1277م) لسلطان المريني يعقوب بن عبد الحق⁵ إلى الأندلس في تفاقم الصراع بينه وبين بني الأحمر، خاصة عندما نزل بمالقة واحتفل به أهلها من بني أشقيلولة، واشتركوا معه في التوغل في أراضي القشتالية، وهذا أدى إلى استحالة صفاء القلوب بين يعقوب بن عبد الحق ومحمد الفقيه ملك غرناطة⁶.

¹ - بني أشقيلولة: هم أصهار محم الشيخ بن الأحمر مؤسس مملكة غرناطة من أهل أرجونة، كان لهم مساهمة في تأسيس مملكة غرناطة وتكريما لزعيمهم أبي الحسن بن الحسن بن أشقيلولة، قد قام بن الأحمر بإسكانه قصبته وتقديمه على الجيش، وعندما توفي أبو الحسن ترك ولدين أبا إسحاق وأبا محمد، فصاهرهما بن الأحمر على ابنتيه وولى الأول مدينة واد آش والثاني مالقة فأصبح بنو الأحمر يضمرون لهم الحقد وخاصة عندما ولي محمد الفقيه بن الأحمر (671-701هـ/1272-1301م)، الحكم بعد أبيه الذي اعتبر بني أشقيلولة المنافسين له واستقل هؤلاء عن الحكومة المركزية في واد آش، ينظر: ابن خلدون، العبر، ج7، ص192/ أحمد مختار العبادي، دراسات في تاريخ المغرب والأندلس، مؤسسة الثقافة الجامعية، الإسكندرية، د.ت، د.ط، ص ص 402-403.

² - ابن خلدون، العبر، المصدر السابق، ج7، ص 198.

³ - المصدر نفسه، ص ص 197-198.

⁴ - ابن أبي الزرع، الذخيرة السنينة، المصدر السابق، ج7، ص 151.

⁵ - يعقوب بن عبد الحق: سلطان المغرب وسيد آل بني مرين، كان شجاعا مقدما خرج على الواثق أبي دبوس والتفاه بظاهر مراكش وتملك هذا في أول سنة 668هـ، دخل الأندلس واستتعت مملكه، توفي في محرم سنة 685هـ، ينظر: الصفدي، الوافي بالوفيات، تح: أحمد الأرناؤوط، دار الإحياء للتراث العربي، بيروت، لبنان، 1420هـ/2000م، ج28، ص 63.

⁶ - راغب السرخاني، المرجع السابق، ص 655.

حاول السلطان المريني تحسين علاقته مع غرناطة، حيث قام برفض التوقيع على طلب الصلح المقدم من ملك قشتالة، وترك الأمر للفقهاء كما تنازل السلطان عن جميع الغنائم هذه الحملة العسكرية لابن الأحمر قائلاً له "يكون حظ بني مرين من هذه الغزاة الأجر والثواب"¹.

لكن محمد الفقيه بدلاً من تصالحه مع إخوانه من بني مرين، قام بالتحالف مع ألفونسو العاشر ملك قشتالة، وبيدرو الثالث ملك أراجون، وعقد معهما اتفاقيات ضد السلطان المريني تنص على منع المغاربة من الجواز إلى الأندلس².

فقام النصارى بالاعتداء على القوات المرينية المتواجدة على أرض الجزيرة الخضراء بالاتفاق المسبق مع بن الأحمر³.

لم يكتفي بن الأحمر بهذا العمل بل قام بإجراء عدائي ثاني تمثل في الاستيلاء على مالقة التي ضمت ألف فارس من بني مرين، وبذلك يكون بن الأحمر قد تمكن من استرجاع مالقة إلى النفوذ الغرناطي⁴.

كما أن ملك غرناطة قام بتحريض يغمراسن بن زيان التلمساني بالإغارة على الحدود الشرقية للدولة المرينية، من أجل إشغال بني مرين عن إرسال الجيوش للأندلس مستعملاً أسلوب الإغراء في ذلك المتمثل في إرسال الهدايا.

وكرر فعل ما قام به بن الأحمر، كاد الأمير يوسف بن يعقوب ارتكاب خطأ كبيراً وهو التحالف مع الممالك النصرانية، فعزم سنة (678هـ/1279م) إلى الاستعانة بقشتالة والاحتلال غرناطة العاصمة⁵.

¹ - ابن أبي الزرع، أنيس المطرب، ص 328، محمد عيسى الحريري، المرجع السابق، 1408هـ/1987م، ط2، ص 227.
² - الناصري، الاستقصاء، المرجع السابق، ج3، ص 49، محمد عبد الله عنان، دولة الإسلام، المرجع السابق، ع4، ص 102.

³ - الناصري، المرجع السابق، ج3، ص 49، محمد عبد الله عنان، دولة الإسلام، المرجع السابق، ع4، ص 102.

⁴ - يوسف شكري فرحات، المرجع السابق، ص 27.

⁵ - الناصري، المرجع السابق، ج3، ص 50، محمد عيسى الحريري، المرجع السابق، ص 228.

فلولا تدخل السلطان يعقوب لحدثت كارثة عظيمة في حق الإسلام والمسلمين حيث استنكر هذه النية، ومنع ولده عن هذه الفعلة، وأمره بالجهاد ضد أعدائه لا ضد إخوانه¹.
كما أنه استطاع إفشال مخططات بن الأحمر، مما اضطر إلى التراجع عن سياستهم المريية تجاه المرينين².

ونتيجة للخطأ الذي اقترفه بن الأحمر كما ذكرنا سابقاً، قام ملك قشتالة، (ألفونسو العاشر) بنقض المعاهدة مع السلطان يعقوب، حيث أرسل أساطيله إلى الجزيرة وحاصرتها، فحالت بين السلطان يعقوب والعبور إلى الأندلس³، وبذلك ضاق الحصار على أهل الجزيرة الخضراء ومات أكثرهم من جراء القتل والجوع والسهر على الأسوار.

ولاستدراك ما وقع قام السلطان يعقوب بتوجيه حملة جديدة بقيادة ابنه الأمير يوسف وجميع قوات طنجة، كما جمع له الفقيه أبو الحاتم العز في صاحب سبته خمسا وأربعين سفينة، واستنفر كل أهل بلده للجهاد وركب الجميع البحر سنة 678هـ/1279م⁴.

ندم بن الأحمر على تحالفه مع ألفونسو العاشر وما ألحقه من أضرار لأهل الجزيرة فبادر إلى إعداد أساطيله من المنكب والمرية ومالقة، مدداً للمسلمين كتخفيف للذنب الذي اقترفه في حق أهل الجزيرة، وتقدمت أساطيل المسلمين من طنجة إلى جبل الفتح، وأوقعوا الهزيمة بالأسطول القشتالي واضطر جنوده الذين كانوا يحاصرون الجزيرة الخضراء إلى الفرار⁵.

¹ - محمد عبد الله عنان، دولة الإسلام في الأندلس، المرجع السابق، ع4، ص 103.

² - محمد عيسى الحرير، المرجع السابق، ص 228.

³ - الناصري، المرجع السابق، ج3، ص ص 45-48.

⁴ - محمد عبده حتاملة، الأندلس التاريخ والحضارة ومحنة، دراسة شاملة، دائرة المكتبة الوطنية، عمان الأردن،

1420هـ/2000م، د.ط، ص 569.

⁵ - المرجع نفسه، ص 569.

عمل السلطان يعقوب المريني على توحيد المسلمين، فحاول إقناع يغمراسن في المغرب الأوسط (تلمسان) بالانضمام إليه لمحاربة الاسبان وترك مخالفتهم، إلا أنه أبى ذلك، مما دفع بالسلطان يعقوب إلى محاربتة، وبالطبع تمكن من ذلك، ووطد نفوذه في جميع أنحاء المغرب¹.

كان لبني مرين صدى بالغ الأهمية في العبور الثالث سنة 681هـ/1282م، حيث استنجد ملك قشتالة (ألفونسو العاشر) بهم ضد ابنه سانشو، الذي كان ينازعه على العرش فاغتتم السلطان هذه الفرصة التي كان ينتظرها بفارغ الصبر، وسار على الفور إلى الأندلس، ونزل صخرة عباد².

حيث قابله ألفونسو العاشر وأعلن خصومه له، وطلب منه مالا ليستعين به فأسلفه السلطان المريني مائة ألف دينار مقابل رهن ألفونسو العاشر تاجه الموروث عن أسلافه، وبقي هذا التاج عند بني مرين يفتخرون بحصولهم عليه، ثم تقدم السلطان مع ألفونسو العاشر³ ونازل قرطبة، التي كان بها سانشو الابن ثم ارتحل عنها إلى طليطلة، ثم عاد غانما إلى الجزيرة الخضراء بعد أن أعاد ألفونسو العاشر إلى ملكه.

والطرف الثاني يمثله سانشو فقد كان متحالفا مع ابن الأحمر فقام السلطان يعقوب بالاستيلاء على مالقة، وعلى أثر ذلك وجب على بن الأحمر والسلطان يعقوب التفاهم وإزالة الخلافات، بالفعل ثم ذلك⁴.

واصل السلطان يعقوب غزواته ضد الاسبان فترة من الزمن، ثم عاد إلى المغرب سنة 682هـ/1283م، بعد التفاهم بينه وبين بن الأحمر: على أن تكون مالقة قاعدة المرينين بالأندلس، وضعوا فيها عددا من الفرسان لمواصلة الجهاد، مما ساعد على صمود غرناطة⁵.

¹ - الناصري، المرجع السابق، ج3، ص ص 53-54.

² - ابن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، ج1، ص 561.

³ - ابن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، المصدر السابق، ج1 ص 562.

⁴ - المصدر نفسه، ج1، ص 562.

⁵ - عبد الرحمن علي الحجي، التاريخ الأندلسي من الفتح الإسلامي حتى سقوط غرناطة، دمشق، بيروت،

1407هـ/1987م، د.ط، ص ص 538-539.

وأُنشئ في غرناطة منصب جديد هو مشيخة الغزاة الذي اقتضت مهمته على تنظيم أمر الجهاد، وتولى هذا المنصب بنو العلاء من أقارب سلطان بني مرين، وكان أول شيخ للغزاة هو عبد الله بن أبي العلاء المتوفي سنة 693هـ/1294م¹.

وفي سنة 684هـ/1285م عاد السلطان يعقوب إلى الأندلس للمرة الرابعة، حيث قام ولي عهده يوسف بغزو عدد من المدن والحصون الإسبانية في واد لكّة وشريش وروطة وإشبيلية وغيرها من الحصون، وبذلك يكون قد أوقع بهم خسائر كبيرة وعاد إلى قاعدته في الجزيرة الخضراء.

أرسل الطاغية سانشو الرابع (1284هـ/1295م) ملك قشتالة وفدا إلى السلطان يعقوب لطلب السلم والمهادنة، فمن فاستجاب السلطان إلى ذلك، ومرض السلطان وتوفي في سنة 685هـ/1286م، بالجزيرة الخضراء، وحمل إلى رباط الفتح حيث دفن هناك وخلفه ابنه يوسف².

في البداية كانت العلاقة حسنة بين محمد الفقيه والسلطان يوسف إلا أنها سرعان ما عادت إلى التدهور، بسبب الإفساد الذي قام به الطاغية سانشو الرابع بن ألفونسو العاشر³.

حاصر سانشو الرابع مدينة طرّيق واستولى عليها سنة 691هـ/1292م، وبالرغم من تحالفه مع بن الأحمر إلا أنه لم يمنحه شيئا فندم بن الأحمر على هذا التحالف وأرسل وفدا إلى السلطان يوسف معتذرا كعادته⁴.

كما طلب منه مساعدته لاستعادة طرّيق، ثم حضر بن الأحمر إلى طنجة بنفسه سنة 692هـ/1293م، حيث قابل السلطان وأهداه عدة هدايا كان أحسنها مصحف يقال أنه مصحف عثمان بن عفان رضي الله عنه، وصفح السلطان عن بن الأحمر وعبر معه إلى الأندلس، واستمرت العلاقة ودية بين المرينيين وبني الأحمر حتى وفاة السلطان محمد الفقيه سنة (701هـ/1301م). ورغم أن

¹ - عبد الرحمن علي الحجّي، المرجع السابق، ص ص 538-539.

² - الناصري، المرجع السابق، ج3، ص ص 62-65.

³ - الناصري، المرجع السابق، ج3، ص ص 62-65.

⁴ - المرجع نفسه، ص ص 68-75.

العلاقة مضت ودية في عهد الخليفة أبي عبد الله المخلوع، إلا أنه عدل عن ذلك إلى التحالف مع هراندة¹ ملك قشتالة².

وما زاد في استفحال العداء هو استيلاء عثمان بن أبي العلاء المريني أحد الطامعين في الملك على سبتة بمعاونة القائد أبي سعيد فرج بن إسماعيل صاحب مالقة³.

وظالت مدة بقاء عثمان بن أبي العلاء في سبتة بسبب وفاة السلطان أبي يعقوب يوسف فجأة وبعده أبي السلطان ثابت المريني قبل أن يخوض مع عثمان بن أبي العلاء المعركة الفاصلة (708هـ/1308م).

ما يحدث في هذه الفترة شبيها بما كان يحدث في عهد ملوك الطوائف الأولى، فبدلاً من محاربة العدو، واتحادهم مع بعض كان كل شخص يهدف إلى تحقيق مصلحة الشخصية، ففي الفترة التي كان يسود فيها الاستقرار والتعاون بين بني الأحمر وبني مرين تظهر شخصية طامعة في الحكم، ألا وهي شخصية عثمان بن أبي العلاء المريني، ليعكر صفوى هذه العلاقة.

وفي عهد السلطان أبي الربيع سليمان المريني تمكن من إلحاق الهزيمة بأبي العلاء في صفر سنة (709هـ/1309م)، وفي نفس السنة قام القائد تاشفين بن يعقوب الوطاسي من اقتحام سبتة وإعادة لها إلى حظيرة الدولة المرينية⁴.

بالرغم من أن العلاقة بين بني مرين وبني الأحمر كانت متذبذبة فترة من الزمن إلا أنها وباعتلاء أبي الحسن المريني للعرش سنة 731هـ/1330م تغيرت تماماً، إذا صادفت دعوة بني الأحمر لبني مرين لمعاونتهم في تخفيف الضغط النصارى عنهم.

¹ - هرانده بن شانشو: هو الملك القشتالي فرناندو الرابع (1295-1315م)، استولى على جبل طارق سنة 1309/709م، عندما توفي خلفه ولده الطفل ألفونسو 11 سنة 1312م، ينظر: محمد عبد الله عنان، دولة الإسلام، المرجع السابق، ع4، ص 171.

² - عيسى الحريري، المرجع السابق، ص 229.

³ - المرجع نفسه، ص 229.

⁴ - عيسى الحريري، المرجع السابق، ص 230.

ونظرا لرغبة أبي الحسن¹ الشديدة للجهاد في الميدان الأندلسي استجاب لهذه الدعوة، وكان من نتيجة ذلك استيلاء المسلمين على جبل الفتح في سنة 733هـ/1333م².

ليمني بهزيمة كبيرة في ما بعد بموقعة طريف، هذه المعركة التي تعرف في المصادر الإسبانية بمعركة سالاد و"Batlla de salato" وقال عنها لسان الدين بن الخطيب بالوقية الكبرى والعظمى، والتي وقعت يوم 07 جمادى الثاني 741هـ، 30 أكتوبر 1340م³.

حيث انتهت بهزيمة جيوش المسلمين (بني مرين وبني الأحمر)، ضد جيوش الممالك النصرانية (القشتاليين والأرجونيين والبرتغاليين) وأدى ذلك إلى استشهاد عدد كبير من المسلمين⁴، كان من بينهم والد ابن الخطيب وأخوه الأكبر⁵، وما أسفر عن ذلك أيضا صرف المرينيين، أنظارهم عن تحركات الممالك النصرانية خاصة بعهد سيطرتهم على الجزيرة طريف، والجزيرة الخضراء اللتين تمثلتا همزة وصل بين المغرب والأندلس⁶.

وما يمكن قوله عن العلاقات السياسية بين الدولتين أنه كان يغمرها طابع التفاهم والتعاون في حين، أما في حين آخر كان يغلب عليها التوتر والنفور، وهكذا كله راجع إلى الشك الذي كان يراود سلاطين بني الأحمر، اتجاه المرينيين، ضف إلى ذلك محاولة الممالك النصرانية إفساد العلاقة بينهما كلما تحسن الوضع.

صحيح أن المرينيين تمكنوا من وقف الزحف النصراني لمدة من الزمن، مما زاد في عمر الأندلس، إلا أنهم لم يصلوا إلى ما وصل إليه المرابطون في معركة الزلاقة، والموحدون في معركة الأرك.

¹ - أبو الحسن علي بن عثمان المريني: هو أفخم ملوك بني مرين وأعظمهم أجرة وأبعدهم صيتا، ويعرف عند العامة بالسلطان الأكلل لأن أمه كانت حبشية وكان أسمر اللون، ينظر: الناصري، المرجع السابق، ج3، ص 118.

² - عيسى الحريري، المرجع السابق، ص 230.

³ - ابن الخطيب، للمحة البدرية في الدولة النصرانية، دار الأفاق الجديدة، 1978، ط2، ص 105.

⁴ - ابن الخطيب، كناسة الدكان، المصدر السابق، ص 40.

⁵ - ابن الخطيب، كناسة الدكان، المصدر السابق، ص 42.

⁶ - المصدر نفسه، ص 42.

ومهما يكن فإن بني مرين ساهموا بشكل كبير في حماية الأندلس، قبل أن يدخلوا في دوامة من الفوضى والاضطراب والحروب الداخلية، ضد منافسيهم من جهة وضد جيرانهم من جهة أخرى، بالإضافة إلى الأوضاع الاقتصادية المتردية، التي كان يمر بها المغرب في تلك الفترة، والتي حالت دون تمكن المرينيين من إنقاذ الأندلس ولا حتى الدفاع عن أنفسهم.

2- موقف بني زيان بالمغرب الأوسط:

تعود جذور العلاقات بين بني الأحمر وبني زيان¹ بالمغرب الأوسط، إلى التخوف الذي راود بني النصر اتجاه بني مرين، لا سيما في عهد السلطان محمد الفقيه الذي استدعى السلطان المدني يعقوب بن عبد الحق، لمساندته في محتته، إلا أنه فيما بعد خشي أن يحصل معه مثلما حصل مع المعتمد بن عباد وأمير المرابطين يوسف بن تاشفين، الذي تمكن من ردع النصارى وتأسيس دولته في الأندلس، كما ذكرنا سابقاً².

هذا ما جعل محمد الفقيه يبحث عن وسيلة للخلاص من المرينيين، لذلك عمل على توطيد علاقته السياسية مع المغرب الأوسط والسلطان الزياني يغمراسن بن زيان³، الذي حاز الشهرة واستحق الذكر، وبالرغم من وصول شهرته إلى الأندلس، إلا أنه لم يكن بينه وبين السلطان الفقيه أي علاقات تعاون وجهاد⁴، بل اقتصرت تلك العلاقات على تبادل الهدايا والأموال والرسائل والسفارات والسفارات بينهم، كما أن بني الأحمر قد طلبوا من يغمراسن بن زيان التعاون معهم من أجل ضرب بني مرين، وذلك حتى يصرف يعقوب بن عبد الحق المريني أنظاره عن الجواز إلى الأندلس، وبالفعل

¹ - بنو زيان: أسرة بربرية من ملوك تلمسان، يسمون أيضا بني عبد الواد نسبة إلى أحد أجدادهم ومؤسس دولتهم يغمراسن بن زيان، ينظر: ابن الأحمر، تاريخ الدولة الزيانية، تح: هاني سلامة، مكتبة الثقافة الدينية، مصر، 2001، ط1، ص 17.

² - ابن خلدون، المصدر السابق، ج7، ص 107.

³ - يغمراسن بن زيان: هو يغمراسن بن ثابت بن عبد الواد، أمير المسلمين أبو يحيى (603-681هـ/1206-1283م)، أول من استقل بتلمسان من سلاطين بني عبد الواد، بويغ له يوم مقتل أخيه زيدان بن زيان سنة 633هـ، ينظر: ابن الأحمر، تاريخ الدولة الزيانية، المصدر السابق، ص 59.

⁴ - ابن الخطيب، اللحمة البدرية، المصدر السابق، ص 77.

طبق يغمراسن بن زيان ما اتفق عليه مع بن الأحمر، ودار قتال بين الطرفين قرب وادي تافنة سنة 679 هـ 1281 م، انهزم فيه الزيبانيون¹.

إن العلاقات السياسية بين الدوليتين لم تتوقف بانتهاء عهد يغمراسن بل استمرت واتضحت بشكل كبير في عهد أبي حمو موسى (722هـ/1322م) الذي ولد في مدينة غرناطة، وهذا ما جعله يحن كثيرا إليها ويعمل على تقوية العلاقة بأهلها².

كان أبي حمو موسى سخيا في كل سنة على أهل الأندلس بمال والخيل والزرع لأنه يرى أن محنة الآن ليس لها مسؤولية المسلمين ككل³.

ذكر محمد المليبي نقلا عن ما عبر عنه لسان الدين بن الخطيب بقوله في أبيات شعرية:

لقد زار الجزيرة منك بحر يمتد فليس نعرف له جزرا
أعدت لنا بعهدك عهد موسى سميك فهي تتلوا منه ذكرا
أقمت جدارها وأفدت كنزا ولو شئت لتخذت منه أجرا⁴

زادت الرسائل التي كانت تتبادل بين الدولتين، في عمق العلاقات السياسية وتميزها، مما جعل الغرب الأوسط وعاصمته تلمسان⁵، محطة هامة للهجرات الأندلسية، حيث استقبل الزيبانيين أحوانهم

¹ - ابن أبي الزرع، الأنيس المطرب، المصدر السابق، ص 366-337

² - ابن الأحمر، تاريخ الدولة الزيبانية، المصدر السابق، ص 76

³ - الإدريسي بن مصطفى، العلاقات السياسية والاقتصادية لدول المغرب الإسلامي مع دول غرب أوروبا، رسالة دكتوراه، تلمسان، قسم التاريخ وعلم الآثار، 1435-2004، ص 302.

⁴ - مبارك بن محمد المليبي، تاريخ الجزائر في القدم والحديث، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، د.ت، د.ط، ج2، ص 448.

⁵ - تلمسان: بكسرتين وسكون وميم وسين مهملة وبعضهم يقول تلمسان بنون عوض اللام، قاعدة المغرب الأوسط وهما مدينتان متجاورتان، بينهما رمية الحجر، ويقول يقوت الحموي في حديثه عن تلمستن أنها تتكون من مدينتين متجاورتين أحدهما قديمة تسمى أفادير وأخرى حديثة تافرات بناها المثلثون أي المرابطون، وكلمة تافرات تعني الخلة بلسان البربر على حد قول ابن خلدون، ينظر: ياقوت الحموي، المصدر السابق، ج2، ص 44، ابن خلدون المصدر السابق، ج7، ص 62، مؤلف مجهول، كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار" وصف مكة والمدينة ومصر وبلاد المغرب"، نر وتع: سعد زغلول عبد الحميد، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، د.ت، د.ط، ص 176.

أخوانهم الأندلسيين المضطهدين والمهاجرين بكل حفاوة وصدر رحب وبهذا تشكلت عدة جاليات أندلسية.

بالعاصمة تلمسان وهي: أسرة بني وضاح، وبني ملاح، العقبانيون وغيرهم، والتي ساهمت بشكل كبير في النشاط السياسي والعلمي بتلمسان.

وبذلك أصبحت تلمسان من أهم المراكز الثقافية بالمغرب الإسلامي عامة والمغرب الأوسط خاصة¹.

ولقد حرص سلاطين بني زيان على استقبال المهاجرين الأندلسيين استقبالا حارا وجعلوا لكل مهاجر موضع يليق به، فأنزلوا العلماء بالعاصمة تلمسان وأنزل التجار والحرفيين بمكان خاص بهم عرف بدرب الأندلسيين².

الاهتمام الكبير الذي حظي به المهاجرين الأندلسيين من طرف سلاطين بني زيان جعلهم يوجهون أنظارهم إلى الأماكن أخرى في المغرب الأوسط غير تلمسان³.

لم تقتصر دعم بني زيان لبني نصر على الجانب المادي واستقبال المهاجرين، فحسب بل تعدى إلى غير ذلك ولكن بشكل قليل، ففي سنة 763 هـ/1361م أرسل السلطان محمد الخامس سفارة إلى تلمسان، برئاسة الفقيه الكاتب (إبراهيم بن الحاج النميري)⁴، بهدف طلب المساعدة من سلطان أبي

¹ - يحيى بن خلدون، بغية الرواد في ذكر ملوك من بني عبد الواد، تح: عبد الحميد حاجيات، المكتبة الوطنية للنشر، الجزائر، 1980، د.ط، ج1، ص 205.

² - الشريف بن مریم، البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، نشره: عبد الرحمان طالب، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1986، د.ط، ص 127.

³ - عبد العزيز فيلاي، تلمسان في العهد الزياني، موفم للنشر والتوزيع، الجزائر، 2002، د.ط، ج1، ص 175.

⁴ - إبراهيم بن الحاج النميري: هو إبراهيم بن عبد الله بن إبراهيم الأسد النميري عرف بلقب بن الحاج، ولد بقرناطة (713هـ/1313) ولي كتابه الإنشاء في الدولة النصرية من مؤلفاته، فيض العباب، إجابة قداح الآداب في الحركة في قسنطينة والزاب، ينظر: يحيى بن خلدون، المصدر السابق، ج2، ص 245.

حمو موسى الثاني، لمساندة مسلمي الأندلس، وقد نجحت السفارة في أداء مهمتها واستجاب لها السلطان الزياني¹.

ولما زاد تضيق الخناق على بن الأحمر من طرف النصارى، خاصة بعدما وجه البابا في روما النداء إلى أهل ملته لمحاربة ملك بيدرو²، ملك قشتالة الذي كان على علاقة طيبة مع مسلمي الأندلس.

ونتيجة لهذا التصرف كان لابد من حتمية جهاد الزيانيين لنصر إخوانهم الأندلسيين³، بعد وصول الدعم الإسلامي. اتفق محمد الخامس⁴، وأعضاء دولته على شن الحرب على الموقع الإستراتيجية القشتالية، المهتدة لمملكة غرناطة، وأمر بتحسين الثغور استعدادا لصد هجمات النصارى⁵.

وفي شهر شعبان سنة 767 هـ/1366م، استطاع المسلمون الاستيلاء على حصن برغة وباغوا الذين كانوا قشتاليين، يغزون منهما مدينة رندة، أحوزها. ثم بعد مدة استحوز وعلى حصن آشر المنيح الذي يقع عند نقطة الالتقاء، بين حدود المقاطعات الثلاث، غرناطة، قرطبة وإشبيلية.

¹ - المصدر نفسه، ص 245.

² - بيدرو: ملك قشتالة الملقب بالقاسي (دون بطره) خلف أباه ألفونس على الملك سنة (751 هـ/1350م)، وقتل خلال ثورة ضده سنة (770 هـ/1368م)، ينظر: يحيى بن خلدون، المصدر السابق، ج2، ص 335.

³ - محمد عبد الله عنان، عصر الموحدين، المرجع السابق، ص 144.

⁴ - محمد الخامس: هو ألقى بالله محمد بن يوسف تولى الحكم سنة 755 هـ/1354م، وكان لا يزال صبيا، استمرت فترة حكمه خمس سنوات، إلى أن خلعه إسماعيل لنزاع بينهما. ثم عاد إلى الحكم سنة 762 هـ/1361م بعد مقتل أخيه من طرف ابن عم والد، محمد بن إسماعيل، أقام محمد الخامس علاقات طيبة بدول المغرب الإسلامي توفي في سنة 793 هـ/1391م، وترك الدولة تنعم في استقرار وازدهار، ينظر: ابن الخطيب، أعمال الأعلام، المصدر السابق، ق2، ص 306، المقري، المصدر السابق، ص 348.

⁵ - عبد القهار عواجي، علاقات مملكة غرناطة مع الدول الإسلامية، رسالة دكتوراه، جامعة أم القرى، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، ص 144.

كذلك استولى على حصن السهلة بالقرب من جبل طارق والذي لعبت القوات الزيانية دورا في احتلال هذا الحصن¹.

أما في سنة 768هـ/1366م، هاجم الجيش الغرناطي أطرية، ودخلوا في معركة ضارية مع الجيش النصراني، هزم فيها النصارى²، حيث بلغ عدد الأسرى خمسة آلاف أسير³.

وبعد هذا النصر المحرز عزم محمد الخامس في نفس السنة على تحرير الجزيرة الخضراء، بالفعل تمكن من ذلك ودخلها، إلا أنه وبعد فترة وجيزة أمر بتدميرها خوفا من العودة النصارى وإليها⁴.

يقال إن وراء كل مصيبة رجال أقوياء وأشداء وزعماء، بالفعل كان لغرناطة، رجلا ساندها في محنتها، ومنحوها القوة والعزم للمضي قدمها ومن أمثال ذلك: أبو حمو وموسى الثاني.

ساهمت الدولة الزيانية في دعم الدولة النصرانية ماديا، بشكل أكبر وذلك للظروف التالية:

الصراع الدائم مع جاريتها (الدولة المرينية والدولة الحفصية)، وهذا ما أرهق كاهلها على الجانبين الاقتصادي والعسكري، مما جعل دورها الجهادي يقتصر على الإمدادات المالية والمواد الغذائية⁵.

لذلك لم تستطع إرسال الجيش منظم بل كانت تقوم ببعث جماعات بدافع لجهاد في سبل الله⁶.

- وهناك عامل آخر والمتمثل في بعد المسافة الذي حال دون إرسال الإمدادات العسكرية إلى غرناطة على عكس المرينيين.

¹ - ابن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، المصدر السابق، ج2، ص ص80-81.

² - ابن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، المصدر السابق، ج2، ص 83.

³ - عبد القهار عواجي، المرجع السابق، ص 114.

⁴ - محمد عبد الله حاتم، المرجع السابق، ص 589.

⁵ - نصر الله سعدون، تاريخ العرب السياسي في الأندلس، دار النهضة العربية، للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، 1988م، د.ط، ص 339.

⁶ - عبد الرزاق شقدان، تلمسان في العهد الزياني، رسالة ماجستير جامعة النجاح الوطنية، كلية الدراسات العملية، 1422-2002، ص 120.

- إضافة إلى أن الدولة بني زيان لم تكن بحرية في الكثير من الفترات، خاصة في فترة الحصار المريني، والذي انحصرت فيه داخل أسوار مدينة تلمسان ولم يكن لها أسطول يعتمد عليه في القتال ولا حتى في نقل الإمدادات، وبذلك لم تستطع التفكير في الجهاد داخل الأندلس¹.
بوسلية أو بأخرى استطاعت الدولة الزيانية مساندة مملكة غرناطة، حتى وإن لم تكن بشكل كبير، إلا أنها منحنتها القوة والأكمل في صمودها أمام المالك النصارية لمدة من الزمن.

3- موقف بيني حفص بالمغرب الأدنى:

تعد دولة بين حفص² التي قامت بالمغرب الأدنى من أهم دول المغرب الإسلامي بعد سقوط دولة الموحدين، ولقد ربطت بينها وبين الأندلس علاقة جد متينة، خاصة بعد تعرض أندلسيين إلى ضربات النصارى وسقوط معظم المدن الأندلسيين كقرطبة وبلنسية، أشيلية، جيان... ولم يبق لهم سوى دول المغرب الإسلامي كسند وأمل وحيد للخلاص ومن بين هذه الدول "الدولة الحفصية"³.
وبعد انهزام المسلمين في معركة أنشية⁴، التي كانت دليلاً واضحاً على قرب سقوط بلنسية، رأى المسلمين أن لا طاقة لهم في مواجهة العدو ولذلك عزموا على مبايعة سلطان الدولة الحفصية بتونس أبا زكريا يحيى بن أبي حفص (625هـ-647هـ) (1228م-1249م) حيث أرسل صاحب بلنسية زيان بن مردينش بعثة.

¹ - المرجع نفسه، ص 123.

² - بني حفص: ينحدر الحفصيون من نسل أبي حفص عمر بن يحيى الهناتي من قبيلة هناتة، وهو من كبار رجال دولة الموحدين وأحد طبقة الجماعة وفي الطبقة الأولى في نظام المهدي بن تومرت، يذكر بن الشماع في نسبهم أيضاً " أنه ينتهي إلى لمولى أبو محمد بن الشيخ بن يحيى بن محمد بن الوالد بن علي بن أحمد بن ولال بن إدريس بن خال بن اليسع بن الياس بن عمر بن محمد بن محبة بن كعب بن محمد بن سالم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنه والشيخ أبو عمر بن هنتاتة، ينظر: ابن الشماع، المصدر السابق، ص 48، عبد الوهاب بن منصور، قبائل المغرب، الرباط، المطبعة الملكية، 1968م، د.ط، ص ص 168-169.

³ - شكيب أرسلان، خلاصة تاريخ الأندلس، منشورات دار المكتبية الحياة، بيروت، 1983، د.ط، ص 54.

⁴ - أنيشة: هي معركة وقعت بين المسلمين بقيادة أبا جميل زيان بن مردينش والنصارى بقيادة خايمي الأول ملك الأراغون، وقد هزم المسلمون في هذه المعركة، ينظر: محمد عيد الله عنان، عصر الموحدين، المرجع السابق، ص 36.

لمبايعة وطلب الاستغاثة من أبي زكريا، فكانت تلك المبايعة التي تمت في سنة 636هـ/1238م ويعد هذا العام من أولى الاتصالات بين الأندلس وبني حفص¹.

لبي أبي زكريا نداء الأندلسيين، وبعث إليهم الأموال والسفن المحملة بالعتاد، لا نجد المدينة المحاصرة لكنها لم تستطع اختراق الحصار واضطر البلسانيون في نهاية المطاف إلى تسليم المدينة ومغادرتها في صفر 663هـ/1238م، وانهارت بذلك سائر خطط للدفاع عن شرق الأندلس، وبهذا يكون قد سقط شرق الأندلس كله في أيدي النصارى².

كان هناك تعاون مشترك بين الدولة الحفصية والمرينية مع مملكة غرناطة ضد تأمر وتحالف الممالك النصرانية، ففي سنة 740هـ/1339م طلب أبا الحسن المريني من دولة بني حفص المساهمة بقطع من أسطولهم البحري إلى جانب الأسطول المريني، والنصر بعد إدراك مدى خطورة الوضع وصعوبة مواجهة النصارى³.

فأرسل لهم السلطان الحفصي ستة عشر أسطولاً بقيادة زيد بن فرحون، وقد ضم هذا الأسطول سلفاً من طرابلس، وقابس، وجربة وتونس وبجاية

نزلت أساطيل المغربيين بمرسى سبتة، متخذينها قاعدة لهم⁴.

استمرت العلاقة طيبة بين الدولتين (الحفصيين وبني الأحمر)، على عهد السلطان محمد الخامس، حيث بعث السلطان الحفصي أبو إسحاق إبراهيم الثاني سنة (750هـ - 770هـ/1349-1368م) سفيرة إلى مملكة غرناطة مصحوباً بالخييل والرقيق، وهذا ما زاد في استمرار وتوطيد العلاقة⁵. زاد تفاقم الخطر النصراني سنة 807هـ/1404م، حيث تحالفت كل من قشتالة ونفارة وأرجون، وقاموا برسم مشروع للهجوم على مملكة غرناطة والقضاء عليها.

¹ - الزركشي (أبي عبد الله محمد بن إبراهيم)، تاريخ دولتي الموحدية والحفصية، تح وت: محمد ماضود، المكتبة العتيقة جامع الزيتونة، تونس، 1289، ط2، ص 28، عبد القهار عواجي، المرجع السابق، ص 118.

² - محمد عنان، المرجع السابق، عصر الموحدين، ص 36.

³ - الناصري، المرجع السابق، ج3، ص 135.

⁴ - ابن خلدون، المصدر السابق، ج7، ص 346.

⁵ - عبد القهار عواجي، المرجع السابق، ص 122.

استمر هذا الصراع ضد الممالك القشتالية ثلاث سنوات متتالية من سنة 810 هـ إلى غاية 813 هـ، شملت البر والبحر، تمكن خلالها السلطان محمد السابع من بث الفزع والرعب في مملكة قشتالة¹.

وكان يعاصره في دولة بني حفص السلطان أبو فارس عبد العزيز (796-837 هـ/1394-1433 م) الذي كان يزود أهل غرناطة بالمؤونة والسلاح ليتمكنوا من الوقوف في وجه العدو². لم تتوقف الإعانة الحفصية لملوك غرناطة في سبيل الجهاد بل إنها استمرت في عهد أبو عبد الله محمد المنتصر (837-893 هـ/1434-1468 م)³.

الدولة الحفصية هاته الدولة التي مدت في عمر الأندلس، واستجابت لصرخات المسلمين فيها، حيث تركت أثر بالغ الأهمية في حماية مملكة بني الأحمر وبذلت كل ما في وسعها لبقاء الوجود الإسلامي في الأندلس، وبالتالي جعلت لنفسها مكانة ما زال التاريخ يذكرها إلى يومنا هذا.

¹ - المرجع نفسه، ص 122.

² - عبد القهار عواجي، المرجع السابق، ص 123.

³ - ابن الشماع، المصدر السابق، ص 60.

الفصل الثالث

نتائج حروب الاسترداد

المبحث الأول: سقوط غرناطة وأسبابها

المبحث الثاني: نهاية الحكم الإسلامي والوجود السياسي بالأندلس

تمهيد:

لم يبق في يد المسلمين سوى غرناطة لتكون آخر معقل لهم، وهي تنتظر مصيرها المؤلم، فقد رأى الملك الكاثوليكي أن وقت الاستيلاء عليها قد حان، فسارعوا لتضييق الخناق عليها قبل أن تشتد قوتها، كما أن الفرصة كانت سانحة لذلك وكانت مسألة سقوطها.

المبحث الأول: سقوط غرناطة وأسبابها

بدا واضحا منذ البداية أن مملكة غرناطة، بالرغم من صمودها مدة طويلة، إلا أنها ستسلب كما سلبت من سبقها من المدن خاصة وأنها حملت في طيتها بذور فئائها وهذا راجع إلى عدة أسباب.

1 - الأسباب الداخلية:

1-1- الصراع حول السلطة:

يعتبر محمد بن الأحمر أول من قام بتأسيس مملكة غرناطة حيث رسم حدودها، بعد أن قدم ملك قشتالة عددا من الحصون الإسلامية نظرا لصلح طويل المدى¹، وكانت المملكة تعم بالهدوء والاستقرار في عهد محمد الثاني²، لكن متاعب المملكة بدأت عندما أصيب محمد الثالث بمرض في عينه، فأراد كبار الدولة الاستغناء على خدماته فلما علم بالأمر تنازل لهم على الحكم³، وغادر غرناطة إلى المنكب حيث توفي هناك سنة (701هـ/1301م) ثم بعد ذلك بايعوا نصر بن محمد بالخلافة وعرفت البلاد في عهد ثورات عديدة أشهرها تلك التي أعلنها ضده ابن عمه أبو الوليد إسماعيل بن فرج الذي ادعى الملك لنفسه في مالقة⁴.

¹ - المقرئ، نفخ الطيب، المصدر السابق، ص: 147.

² - ابن الخطيب، رقم الحلل في نظم الدول، المطبعة العمومية، تونس، 1316هـ، د.ط، ص: 42.

³ - ابن الخطيب، اللوحة البدرية، المصدر السابق، ص ص 66 - 79.

⁴ - ابن خلدون، العبر، المصدر السابق، ج7، ص: 366.

وبعدها دخل غرناطة واقتحم الحمراء¹، في شوال (713هـ/1314م) وأعلن نفسه ملكا عليها وفي سنة (725هـ/1326م)، قتل من طرف ابن عمه محمد بن إسماعيل بن فرج المعروف بمحمد الرابع، الذي بويع لنفسه عرش غرناطة من 725هـ إلى 733هـ² إلا أن نهايته كانت على يد عدد من الجنود المغاربة الموجودين بغرناطة، وبويع بعده أخاه أبو الحجاج يوسف بن إسماعيل الملقب بيوسف الأولى، وانتهى حكمه بمقتله سنة (755هـ/1355م)³.

وتولى الحكم بعده ابنه الغني بالله محمد بن يوسف الأولى المعروف بمحمد الخامس سنة (755هـ/1355م)، وأحدث فتنة بين ابنه إسماعيل محمد، فقام بترشيح الأولى لتولي الأمر بعده، ثم تراجع عن القرار ورشح ابنه الثالث وهذا الأمر أثار ابنه الأكبر، فعمل على عزله من الحكم، وتولى أمر غرناطة بدل أبيه لكنه قتل في أقل من سنة من حكمه، ليعود والده إلى الحكم من بعده سنة 726هـ/1361م⁴، إلى غاية وفاته سنة 794هـ، بحيث تسلم ابنه يوسف الثاني الذي استطاع أن يحافظ على الاستقرار، ثم خلفه ابنه محمد السادس ابن يوسف الثاني، الذي سار على نهج والده، ثم تولى الحكم بعده يوسف الثالث الذي تولى العرش من بعده سنة (810هـ/1408م)، تعد الفترة التي حكم فيها كل من محمد السابع وسعد بن إسماعيل من سنة 810هـ إلى غاية 868هـ⁵، وهي السنة الفعلية لبداية انهيار مملكة بني الأحمر، وتليها فترة حكم أبي الحسن علي بن سعيد إسماعيل الناصري المدعو "مولاي حسن" 868هـ-887هـ، الذي تميزت فترة حكمه بالاضطراب والفتن، بسبب الخلافات التي كانت بين زوجته عائشة (وتعرف بالحرّة) وبين محظيته الإسبانية ثريا (وكان اسمها إيزابيلا دوسوليس)⁶.

¹ - الحمراء: سمي بذلك نسبة إلى لون التربة التي أنشئ عليها حيث شيد فوق أرض مرتفعة، تحيط به قمم جبال عالية، صعبة المنحدر ويغطي حصن القمر بأسوار من المرمر، ينظر: عصام الدين عبد الرؤوف الفقي، المرجع السابق، ص 299-300.

² - ابن خلدون، المصدر السابق، ج7، ص 366.

³ - المصدر نفسه، ص 366.

⁴ - ابن الخطيب، اللوحة البدرية، ص 106-107.

⁵ - سعدون نصر الله، تاريخ العرب السياسي في الأندلس، المرجع السابق، ص 384.

⁶ - أسعد حومد، المرجع السابق، ص 129.

فقد كان السلطان متزوجاً من عائشة وأنجبت له ابنة وولي عهده، أبا عبد الله الصغير، ثم وقعت في يده فتاة إسبانية من أسرة نبيلة اسمها ثريا، وسميت بهذا الاسم بعد إسلامها وتزوجت بـ أبا الحسن وأنجبت له أبناء، وعملت على توريث ابنها الأكبر كولي للعرش بدلاً من عبد الله الصغير، ولتنجح في مسعاها وتبلغ مبتغاها حرّضت الملك على ابنه وزوجته عائشة الحرة¹.

عرفت الأميرة ثريا بالذكاء والدهاء، الأمر الذي أدى بها إلى التدخل في شؤون مملكة غرناطة، حيث يعتبرونها بعض المؤرخين أنها جاسوسة لصالح أهلها الأاسبان، ومن ضمن محاولاتها أن جعلت السلطان أبا الحسن² يعتقل أبناءه وزوجته عائشة في برج قمارش³.

هذا الأمر زاد من انقسام المجتمع الغرناطي، بعضهم يؤيد عائشة وأولادها، والبعض الآخر يؤيد الرومية وأولادها فاشتدت الفتنة التي مصدرها النساء⁴.

وفي جمادى الثاني (877هـ/1482م) استطاعت عائشة الفرار من سجنها مع أولادها بمساندة بني سراج، وفي وادي آش أعلن ابنها محمد الصغير⁵ العصيان على والده وقام بعزله⁶، ففر السلطان

¹ - أسعد حومد، المرجع السابق، ص 130.

² - المرجع نفسه، ص ص 130 - 131.

³ - قمارش: بلد تقع شمال مالقة وقد أطلق اسمها على بهو في قصر الحمراء، اشتهرت بمياهها وبساتينها التي تمد غرناطة بمحاصيلها الزراعية، ينظر: ابن الخطيب، معيار الاختيار في ذكر المعاهدة والديار، تح: محمد كمال شبانة، مصر، مكتبة الثقافة الدينية، 2002، د.ط، ص ص 92 - 93.

⁴ - المقرئ، المصدر السابق، ج4، ص:512، مجهول، نبذة العصر في أخبار ملوك بني نصر، تع: الفريد البستاني، د.ب، مكتبة الثقافة الدينية، 2001، ط1، ص:240.

⁵ - الصغير: هو أبو عبد الله محمد الملقب بالصغير، آخر ملوك غرناطة، ينظر: ايرفغ واشنطن، أخبار سقوط غرناطة، تر: هاني يحي نصر، مؤسسة الانتشار العربي، بيروت، لبنان، 2000، ط1، ص:402.

⁶ - علي المنتصر الكتاني، انبعاث الإسلام في الأندلس، دار الكتب العلمية، لبنان، 2005، ط1، ص:51.

إلى مالقة والتجأ إلى حاكمها أخوة الزغل¹، الذي كان يتصدى لجيش قشتالة الكبير محاولاً السيطرة على مالقة².

وبعدها دخل الزغل في حرب من بن أخيه أبو عبد الله الصغير، استمرت لفترة طويلة، انتهت بتقسيم مملكة غرناطة إلى شطرين³.

لعب البلاط الملكي دور كبير في زعزعة الحكم وذلك بأطماع بعض الحكام في الاستيلاء على الملك، حيث نشبت بينهما خلافات ونزاعات حول ذلك.

1-2- نفوذ الوزراء ودورهم في الصراع:

يعتبر الوزير الشخصية الثانية بعد السلطان، كان يساعده في الأمور السياسية الداخلية والخارجية للدولة، مما أدى إلى الفتن والاضطرابات وزعزعة أمان المملكة.

أ - تسلط ابن الخطيب على وزارة بني النصر:

يعتبر بن الخطيب من أشهر الذين تسلموا منصب الوزارة في عهد بني النصر، وكان قد حدد له سلطان غرناطة الغني بالله الرسوم الوزارية من الوقوف بين يديه في المجالس العامة وإيصال الرفاع وفصل الأمر وتنفيذ الحكم والمواكلة والمجالسة في صف الوزراء وغيرها من المهام⁴. والظاهر أن اجتماع السلطان والنفوذ بن الخطيب كان سبباً في انحرافه وجنوحه إلى الاستبداد وإتباع الهوى⁵.

¹ - الزغل: الملقب بالشجاع والباسل، دخل في صراع مع أخيه أبو عبد الله الصغير انتهى بتقسيم غرناطة، ووقع معاهدة صلح مع الأسبان مقابل امتيازات له ولأسرته ثم سافر إلى الغرب ينظر: عبد الله عنان، نهاية الأندلس، المرجع السابق، ع4، ص 202.

² - مجهول، نبذة العصر، المصدر السابق، ص12.

³ - خليل إبراهيم السمراي وآخرون، تاريخ العرب وحضارتهم في الأندلس، دار المدر الإسلامي، لبنان، 2004، ط1، ص301.

⁴ - ابن الخطيب، اللمحة البدرية، المصدر السابق، ص 103.

⁵ - عبد الله عنان، نهاية الأندلس، المرجع السابق، ع 4، ص 145.

تم تعرض بن الخطيب إلى النكبة على اثر الثورة التي اندلعت في غرناطة عام 780هـ/1359م، وانتقل رفقة سلطانه إلى العدو المغربية¹، حيث قضى في منفاه ثلاثة سنوات معززا مكرما². إلى غاية اندلاع الثورة في غرناطة تمكن من خلالها السلطان المخلوع من استرجاع عرشه واستدعى وزيره بن الخطيب، ولكنه لم ينعم في تلك المرة بسابق عهده، حيث بدأت سلسلة المؤامرات ضده، إذ كان ينافس في السلطة شيخ الغزاة عثمان بن أبي يحيى، قام بن الخطيب بتحريض السلطان ضده، فتأثر السلطان بتحريضه، ونكب بعثمان وصحبه وذلك في عام 764هـ³.

كان بن الخطيب يحرص دائما على تسلطه في منصبه، ويصرف نظره عن يحاول أن ينازعه فيه، مثلما حدث له مع ابن خلدون الذي وفد إليه إلى غرناطة، حيث جمعت بينهما في البداية أوامر الحب والصداقة والإعجاب المتبادل، ثم فرقت بينهم عوامل الغيرة والتنافس فتبين لابن خلدون إعراض السلطان عنه، وشعر بأثر بن الخطيب في هذا التحول، فغادر الأندلس إلى المغرب سنة 766هـ⁴، وعندما خلا الجو لابن الخطيب وغلب على هوى السلطان ودفع إليه تدبير المملكة وانفرد بالحل والعقد، وانصرفت إليه الوجوه وعلقت عليه الآمال وغشي بابه الخاصة والعامة، وهذا ما أغضب بطانة السلطان وحاشيته واتفقوا على السعاية فيه حيث بادر بن الخطيب مرة أخرى للتفويض عنهم⁵. مستخدما السلطان عبد العزيز لإراحة نفسه من شعب، قام باعتقالهم، وأغرى بن الخطيب سلطانه⁶، لم تدم خطوة بن الخطيب طويلا، فقد شعر من حين لآخر بما يحاك حوله من دسائس

¹ - ابن الخطيب، معيار الاختيار، المرجع السابق، ص 15.

² - نصر الله سعدون، تاريخ العرب السياسي في الأندلس، المرجع السابق، ص 374.

³ - ابن الخطيب، معيار الاختيار، المصدر السابق، ص 16.

⁴ - ابن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، المصدر السابق، ص 29.

⁵ - كارل بروكلمان، تاريخ الشعوب الإسلامية، تر: أمين ومنير البعلبكي، دار العلم للملايين، لبنان، 1968، ط5،

ص 336.

⁶ - ابن خلدون، المصدر السابق، ج 7، ص 144.

ومكائد، ورأى سلطانه بتأثر الخصوم¹، وقد تزعم هذه الحملة الجديد ضده رجالان وثيقا الصلة بالسلطان هما بن زمرك والنباهي²، اللذان دبا أمره على مغادرة الأندلس نهائيا، بحجة تفقده الثغور والموانئ الأندلسية، فأجابه السلطان ونجحت خطته، وهنا تكررت حيلة الوزير بالمغرب من أجل الحفاظ على مركزه، مستغلا فرصة العداة الذي بلغ أشده بين فاس وغرناطة في عهد صديقه السلطان عبد العزيز لتحريضه، على ضم غرناطة إلى مملكته وذلك لسحق أعدائه في غرناطة وتأميم مقاومة بالمغرب³، وقد لقت هذه السياسة قبولا من سلطان المغرب ثم تأكدت العداوة بينه وبين بن الأحمر⁴.

الأحمر⁴.

كان لوزراء بني الأحمر دور أساسي بارز من خلال المهمات التي أوكلت لبعضهم بحيث كان كل من بن الخطيب وبن زمرك⁵، يتدخلان في شؤون السلطان الخاصة وفي حياته اليومية، وهذا الأمر خلق نوعا من الازدواجية وكثيرا ما كانت تنتهي بهلاك الوزير وأحيانا بمقتل السلطان نفسه. وقد أدرك بعض الوزراء دقة المهمة الملقاة على عاتقهم وما ينتظرهم من أخطار، فعمدوا على استخدام الأعيان داخل البلاط وخارجه، فكثر المؤامرات⁶، وأخذ خصوم بن الخطيب يسعون لدى بلاد فاس للتخلص منهم ونجحت مساعيهم.

¹ - ابن الخطيب، أوصاف الناس في التواريخ والصلوات، تح: محمد كمال شبانه، اللجنة المشتركة لنشر التراث الإسلامي بين المملكة العربية ودول الإمارات المتحدة، د.ت، د.ط، ص 16.

² - النباهي: الشهير بابن الحسن، قاضي الجماعة بغرناطة، ولد علم 713هـ، له تأليف في الفتوى، ينظر: المقرئ، لأزهار الرياض في أخبار القاضي عياض، تح: مصطفى سقى، إبراهيم الأبياري، عبد الحفيظ شلي، مطبعة نخبة التأليف والترجمة والنشر، مصر، 1939، د.ط، ج 2، ص ص 5-7.

³ - ابن الخطيب، معيار الاختبار، المصدر السابق، ص 448.

⁴ - ابن خلدون، المصدر السابق، ج 7، ص 488.

⁵ - ابن زمرك: هو محمد بن يوسف ولد في 14 شوال 733هـ، بغرناطة، ونشأ بها وهو تلميذ بن الخطيب ومساعدته في الوزارة، وشارك في جملة من الفنون وتولى الكتابة عن السلطان المريني ابن سالم، ثم رجع من السلطان ابن الأحمر في طلب ملكه، ينظر: المقرئ، أزهار الرياض، المصدر السابق، ج 2، ص 107.

⁶ - شكري فرحات، المرجع السابق، ص 64.

وبعد محاولة الغني بالله استعادته من السلطان عبد العزيز الذي رفض تسليمه وأعاد طلبه من السلطان أبي العباس فاستجاب له¹، بلغ الخبر بالقبض على بن الخطيب إلى السلطان، فبعث وزيره بن زمرك فحضر الوزير في مجلس الخاصة وأهل الشورى، وعرض عليه بعض الكلمات وضعت له في كتابه²، أصدرت فتوى بقتله³، ونقد الجريمة الوزير سليمان بن داوود من أشد خصوم بن الخطيب، لخلاف كان بينهما وتم ذلك عام 776هـ/1375م وهو في السجن⁴.

ب - تزايد خطر نفوذ الوزراء:

لما حدثت اضطرابات في غرناطة خلع على إثرها الأيسر وجلس محمد الصغير على عرش غرناطة فكان بنو سراج من أشد أعدائه، فمال عليهم وطردهم وقرر استئصال نفوذهم المنتشر في أنحاء المملكة⁵، وغادر يوسف بن سراج غرناطة تفاديا للفتنة خوفا من بطش الصغير وانتقل إلى اشبيلية لاجئا إلى الملك يوحنا الثاني⁶، واتفقت معه على العمل لرد السلطان الأيسر للعرش، ونجح في ذلك حيث استدعى الأيسر من تونس فلبى الدعوة محملا بالفرسان وهدايا ثمينة لملك قشتالة، ودار صراع بين الأيسر ومحمد الصغير بثغر المرية⁷، انتهت بإرجاع الأيسر إلى سنة 833هـ/1430م، وهذا الأخير بدوره أعاد يوسف بن سراج وحاول أن يهادن القشتالين سنة 834هـ/1431م، فاشتراط شروط على غرناطة، فزاد ذلك في الفتن الداخلية⁸، ولما كثرت الاضطرابات داخل المملكة عندها حاول السلطان سعد التخلص من نفوذ بني سراج فعمد إلى قتل بعض زعمائهم من بينهم وزيره فرج سنة 866هـ، وهرب ممد وعلي من بني سراج إلى مالقة وبيع أميرها يوسف النصري الذي أعلن استقلاله بمالقة وزحف إلى غرناطة.

¹ - نصر الله سعدون، تاريخ العرب السياسي في الأندلس، المرجع السابق، ص 374.

² - ابن خلدون، المصدر السابق، ج 7، ص 453.

³ - كارل بركلمان، المرجع السابق، ص، 336.

⁴ - ابن الخطيب، معيار الاختبار، المصدر السابق، ص 22.

⁵ - عبد الله عنان، نهاية الأندلس، المرجع السابق، ج 4، ص: 157.

⁶ - شكري فرحات، المرجع السابق، ص: 44.

⁷ - عبد الله عنان، نهاية الأندلس، المرجع السابق، ع 4، ص 157.

⁸ - الكتاني، المرجع السابق، ص 43.

وبعد وفاته سنة 868هـ، اتصل بني سراج بأبي الحسن علي بن سعد ودعوه إلى تسليم الملك، فأثار أبو الحسن على أبيه وخلعه وسجنه¹.

وفي الأيام الأخيرة لغرناطة، اشتهروا الوزيران اللذان توليا مع الفقيه المفاوضات حول تسليم غرناطة للنصارى، هما أبي القاسم ويوسف بن كماشة، حيث كان عاملان للنصارى، يتظاهران أمام عبد الله عكس ذلك، وما يؤكد خيانتهم تلك الرسائل التي وجهها إليهما المفاوضات النصراني إيرناندو دي نافرا، يقدم فيها الوعود بالمكافئات من قبل الملكين فرناندو وإيزابيلا مقابل التعجيل باستسلام غرناطة.

كما أنهما كان يتقاضيان مرتبات من قبل الملكين في الوقت الذي اشتد فيه الحصار على أبناء دينهم وفي يوم تسليم الحمراء²، وفي ظل الصراعات والمنازعات بين الحكام وأمراء تلك الخلافة كان الاسبان لا يغمض لهم جفن في مجال التربص بالعرب للانقضاض عليهم وانتزاع أجزاء من الأراضي المتبقية للمسلمين في الأندلس.

لم يكن الصراع حول السلطة ونفوذ الوزراء سببا وحيدا في ضياع الأمم وانحدارها ، بل هناك أسباب أخرى أدت إلى سقوط غرناطة ، سقوطا كاملا وحاسما ، ولعل من بينها: الترف والركوض إلى الدنيا وملذاتها وشهواتها والخنوع والدعة والميوعة، وهي أولى العوامل التي أدت إلى تلك النهاية المؤلمة.

وقد ارتبطت كثيرا فترات الهبوط والسقوط بكثرة الأموال والانغماس في الملذات³ قال تعالى: ﴿فَلَمَّا أَحْسَبُوا بِأَسْنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ (12) لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِينِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ (13) قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ (14)﴾⁴.

¹ - شكري فرحات، المرجع السابق، ص 46.

² - عبد الحليم عويس، التكاثر المادي وأثره في سقوط الأندلس، دار الصحوة للنشر والتوزيع، مصر، 1994، ط1، ص 31-34.

³ - راغب السرجاني، المرجع السابق، ص 690.

⁴ - سورة الأنبياء، الآية، 11-14.

2 - الأسباب الخارجية:

لقد كان للظروف والعوامل الخارجية دور فعال في سقوط وانحيار مملكة غرناطة ومن بين هذه الأسباب نذكر ما يلي:

2-1- الصراع مع الممالك النصرانية:

أ - الحروب والمعارك بين بني الأحمر والنصارى:

واجهت مملكة بني النصر مشكلة كبيرة وخطيرة في طور تكوينها ألا وهي مشكلة الأسباب فكان بن الأحمر يرى في نفسه زعيم الأندلس وكان ملك قشتالة فرناندو الثالث يرى فيه العدو اللدود فيجب القضاء عليه، أما موقف بن الأحمر هو حماية ما تبقى من الأندلس والتصدي للنصارى¹. هزم القشتاليون وقتل قائد القلعة رودريغو ألفونسو وهو أخ غير شرعي لفرناندو الثالث وعدد من قادة فرسان قلعة رباح².

قام النصارى باحتلال مدينة جيان واستولوا على حصن أراغونة موطن بني النصر ومدينة مرسية، ومن ثم محاصرة غرناطة سنة (642هـ/1244م)³، وعندما أحس بن الأحمر بناقوس الخطر قرر أن يحمي أهله ومملكته فسار إلى ملك قشتالة وقدم إليه الطاعة وعقد الصلح بينهما، كان ذلك سنة (643هـ/1245م)، ومن شروط الاتفاقية أن يوقف القتال لمدة عشرين سنة⁴، شرط أن يؤدي جزية سنوية قدرها مئة وخمسون قطعة من الذهب وأن يساعده في حروبه ضد أعدائه وأن يشهد اجتماع مجلس قشتالة النيابي، باعتباره من الأمراء التابعين للعرش⁵.

وفي سنة (771هـ/1356م)، قامت عدة حملات على مملكة قشتالة وتمكنوا من الاستيلاء على أحواز اشبيلية، وحاصروا قرمونة ومرشانة القريبة منها وبذلك هبت رياح النصر على يد الغني بالله،

¹ - نصر الله سعدون، تاريخ العرب السياسي، المرجع السابق، ص: 453.

² - عبد الله عنان، دولة الإسلام، المرجع السابق، ع4، ص 42.

³ - شكري فرحات، المرجع السابق، ص 21.

⁴ - ابن عذارى المراكشي، المصدر السابق، ص 367.

⁵ - عبد الله عنان، دولة الإسلام، المرجع السابق، ع4، ص: 42.

التي افتقدها الأندلسيون منذ زمن، وبد وفاته سنة 793هـ/1391م خلفه ولده الثاني الملقب بأبي الحجاج من نفس السنة، لم يستمر في الحكم طويلاً، إذ توفي سنة 797هـ/1394م، وخلفه ابنه أبو عبد الله محمد، والذي والذي قام بمعاهدة القشتاليين ولكن القشتاليين وكعادتهم يرمون المعاهدات ولا يحترمونها¹.

فأغاروا على غرناطة وبالتالي تصد لهم المسلمون وهكذا قامت الحرب بين المسلمين والقشتاليين، إلا أن حدث الصلح والهدنة بين الطرفين وذلك سنة (805هـ/1406) لمدة عامين، فنكست بعد شهر ثم عقدت هدنة أخرى لمدة ثمانية أشهر سنة (811هـ/1411م)، توفي على إثرها السلطان أبو عبد الله محمد بعد عودته إلى غرناطة².

وبالرغم من العلاقة السيئة التي كانت بين مملكة غرناطة ومملكة قشتالة إلا أنها عرفت حالة من الهدوء والسلم مع أراغون، ففي سنة (808هـ/1409م)، عقد السلطان الغرناطي أبو عبد الله محمد مع ملك أراغون مرتين وابنه ملك صقلية معاهدة صداقة وتحالف مدتها خمس سنوات، نصت في شروطها على حرية التنقل والتبادل التجاري بين البلدين³.

لما بويع السلطان أبو عبد الله محمد بن يوسف المعروف بالأيسر على عرش مملكة غرناطة، ساءت الأحوال واشتد الصراع بينهما وتكاثرت الثورات بتشجيع من قشتالة، مما أدى إلى إضعاف الدولة الإسلامية والتعجيل بالقضاء عليها وعندما زحف النصارى وادي آش⁴ سنة 831هـ، انتشر فيها الفساد دون أن يردهم السلطان الأيسر، فثار عليه الأهالي وخلعوه لكنه استرد عرشه⁵.

¹ - نصر الله سعدون، تاريخ العرب السياسي، المرجع السابق، ص 376 - 377.

² - الكتاني، المرجع السابق، ص 43.

³ - عبد الله عنان، دولة الإسلام، المرجع السابق، ع 4، ص 151.

⁴ - وادي آش: تقع بمدينة غرناطة تعتبر مركز لصنع الأسلحة ويتوفر بها المعادن الحديد، ينظر: ابن الخطيب، معيار الاختبار

في ذكر المعاهد والديار، المصدر السابق، ص 11.

⁵ - الكتاني، المرجع السابق، ص 44.

وباشتداد وطأة النصارى على مملكة غرناطة اتجه بنو نصر هذه المرة إلى المماليك لطلب النجدة والمدد على يد سفارة أرسلها السلطان الأيسر إلى سلطان مصر الظاهر سنة (844هـ/1440م) وقد اعتذر السلطان يومئذ بأنه عاجز عن تقديم أي معونة عسكرية للأندلس وذلك لبعده المسافة¹.

2-2- صراع مملكة بني نصر مع المرينيين:

لعبت الدولة المرينية دورا فعالا في سبل الحفاظ على الوجود الإسلامي في غرناطة، طيلة القرن والنصف، لكن لم تستمر هذه العلاقة من ود وتقارب بين الدولتين حيث نشب بينهم صراعات لأسباب سياسية متباينة.

بدأ الانشقاق بينهما بسبب بني أشقيلولة أصهار بن الأحمر، فمنذ دخول المرينيين إلى الأندلس لمشاركتهم في الجهاد نجد بني أشقيلولة ينطوون تحت لوائهم²، هذا خلق جوا من الشكوك في نفس بني الأحمر تجاه الوجود المريني في الأندلس، مما أدى إلى تجدد العلاقات بين المرينيين وبين بني الأحمر، ورغم محاولة المرينيين إرضاء بني الأحمر بإعطائه ما حصلوا عليه في حربهم مع النصارى، إلا أنهم استمروا في شكوكهم³.

وما زاد في اشتداد العداة بين الطرفين هو تنازل محمد بن أشقيلولة للسلطان يعقوب بن عبد الحق عن مالقة⁴، يذكر بن الخطيب أن بني أشقيلولة، بعثوا إلى الأمير المسلمين منه أن يأخذ مالقة، وانصرف بن الأحمر وسعى إلى التحالف مع أعداء أبي يوسف في الأندلس والمغرب، فتحالف مع ألفونسو العاشر ملك قشتالة على حليفة المريني⁵.

¹ - محمد عبد الله عنان، موقف القسطنطينية وباقي العالم الإسلامي من سقوط الأندلس محلية الأصالة العدد 27، منشورات وزارة الشؤون الدينية والأوقاف، تلمسان، 2011، مج12، ص 105.

² - حسين مؤنس، تاريخ المغرب وحضارته، المرجع السابق، ج3، ص: 25.

³ - عيسى الحرير، المرجع السابق، ص 228.

⁴ - ابن خلدون، المصدر السابق، ج7، ص 255.

⁵ - شاکر مصطفى، الأندلس في التاريخ، منشورات وزارة الثقافة، سوريا، 1990، د.ط، ص 195.

تخوف ملوك مملكة غرناطة من بني مرين ومحاولة الانضمام إلى قشتالة ضدهم، حيث تحالف بن الأحمر مع سانشو ضد بني مرين مما أدى إلى ضياع الطريق، واتهم السلطان المريني محمد الفقيه بالتقاعس لأنه بقي في غرناطة بحجة المرض وكلف ابنه بقيادة الحملة، ولكن ولده لم يغادر مالقة¹. عقد محمد الثالث المخلوغ هدنة مع قشتالة، لم يرق ذلك العمل لبني مرين فأعاد والفرقة الغرناطية إلى الأندلس، بعدما بقيت سنة كاملة تساهم معهم في حصار تلمسان، كما اتصلوا بملك أراغون خايمي الثاني، يخرضونه على بني الأحمر².

تم تحالف أبي عبد الله المخلوغ مع هراندة ملك قشتالة، بالمضي في عدائه لبني مرين إلى أبعد من ذلك³، حيث أوعز إلى نعمه وصهره أبي سعيد فرج بن إسماعيل صاحب مالقة، أن يحرص أهل سبتة سعيد على خلع السلطان، وسارت حملة بقيادة عثمان ابن أبي العلاء المريني، وبالفعل أصبحت سبتة تحت حكم بني الأحمر، ولم يستطع ملوك المغرب استرجاعها لعدة محاولات إلى غاية سنة (708هـ/1309م)⁴.

بالرغم من أن مملكة بني النصر بحاجة ماسة إلى المرينيين ودعمهم من أجل التصدي للنصارى إلا أنها قامت بينهم حروب ومعارك بسبب بني آشقيلولة.

¹ - شكري فرحات، المرجع السابق، ص 27.

² - المرجع نفسه، ص 29.

³ - عيس الحريري، المرجع السابق، ص 229.

⁴ - عبد الله عان، دولة الإسلام، المرجع السابق، ع4، ص ص 104-105.

المبحث الثاني: نهاية الحكم الإسلامي والوجود السياسي بالأندلس

بعد سلسلة التنازلات التي حصل عليها الأسبان من ملوك بني النصر تزايد الخطر بانحسار السلطة العربية بغرناطة التي أخذت تنحدر نحو نهايتها بشكل واضح في أيامها الأخيرة.

1- حصار مملكة غرناطة:

عند انتهاء مهمة الزغل، لم يبق على المملكتين الكاثوليكيتين سوى القضاء على دولة الإسلام بالأندلس، وذلك بالاستيلاء عليها، ففي أواخر صفر (895هـ/1490م)¹، أرسل الملكان رسالة أخرى إلى آخر ملوك بني الأحمر، يأمره بتسليم المدينة وقصر الحمراء²، على أن يختار مدينة يقيم فيها تحت طاعتها³، وهذا لم يقبله أبو عبد الله الصغير فاستأنفت الحرب بين المسلمين والنصارى⁴.

وأمام الرفض القاطع في بداية الأمر، وضع فرديناند خطة محكمة لإرغام المسلمين عنوة على الاستسلام والخضوع لهم، حيث نزل بقرية، ثم شرع في بناء سور كبير سماه "سانتافي"⁵، تحول فيها إلى مدينة أعطاها الأميرة إيزابيلا اسم القديسة "في" أي مدينة الإيمان المقدس⁶.

ثم سار فرديناند وفي 12 جمادى الثانية 896هـ/23 أبريل 1491م على رأس جيش قوامه خمسين ألفاً إلى مرج غرناطة⁷، وأحرق جنوده الحقول القريبة التي تمد غرناطة بالمؤونة، وعاثوا فيها فساداً، فأتلفوا مزارعها وهدموا القرى قتلوا وأسروا أهلها، هذا ما جعل فرديناند يواصل الحصار حتى تستسلم المدينة⁸، التي كانت تحتوي حوالي 400 ألف نسمة⁹.

¹ - الكتاني، المرجع السابق، ص 54

² - عبد الحكيم الذنون، آفاق غرناطة، بحث في التاريخ السياسي والحضاري العربي، دار المعرفة للنشر والتوزيع، سوريا، 1988م، ط1، ص 50.

³ - نصر الله سعدون، تاريخ العرب السياسي، المرجع السابق، ص 393.

⁴ - عبد الحكيم الذنون، المرجع السابق، ص 51.

⁵ - سانتافي: هي قرية من غرناطة يحيط بها سهول واسعة ومياه مندفعة، وهي شبيهة بقرية عميقة من البقاع الشام. ينظر: مؤلف مجهول، نبذة العصر، المصدر السابق، ص 370.

⁶ - إيرفنج واشنطن، المرجع السابق، ص 37.

⁷ - أسعد حومد، المرجع السابق، ص 146.

⁸ - جمال يجياوي، المرجع السابق، ص 37.

⁹ - نصر الله سعدون، تاريخ العرب السياسي، المرجع السابق، ص 395.

رغم قساوة الوضع الاقتصادي والأمني الذي كانت تعاني منه مملكة بني النصر¹. إلا أن أهلها قدموا كل تضحياتهم في الجهاد²، هذه الحركة تزعمها موسى بن أبي غسان، الذي كان يحرك قلوب الناس وحمسهم على الموت في سبيل الله، والدفاع عن الدين الإسلامي وعن الوطن. استجاب له الغرناطيون في الكثير من المرات³، لكن دون جدوى لأن النصارى كانت أقوى من أن تقضي عليها مثل هذه المقاومة، التي أبدتها العرب في أواخر ملكهم، فبينما كان الحصار يسير سيره، وقع حريق في المعسكر الإسباني.

خشي الإسبان أن يستغل المسلمون الفرصة لصالحهم، لذلك استدركوا ما خسروه وعبثوا جيشهم وزحفوا نحو الأسوار مجتاحين بقية البساتين، التي كانت محيطة بالمدينة، كما قرر الملكان (إيزابيلا وفرديناند) إقامة معسكر من الحجارة بدل الخشب⁴، بذلت الملكة إيزابيلا كل جهودها لإنجاح هذا التصدي ضد المسلمين وأمدت المعسكر بالمدد والذخيرة، مستعينة بخبراء من ألمانيا وإيطاليا وشق الطرق وبناء الجسور لجلب المدافع.

كان حصار غرناطة محكما برا وبحرا، حيث قطع فرديناند كل الإمدادات التي كانت تقدم من المغرب، ذلك بوضع أسطول في مضيق جبل طارق بالرغم من أن الإمارات المغربية كنت ضعيفة وخائفة من النصارى⁵.

وفي أواخر سنة 897هـ/1491م، بدأت غرناطة تعاني من نتائج الحصار، حيث لم يترك النصارى أرضا إلا حاصروها وسيطروا عليها مثل: أرض بليانة وأرض رसानة، أرض ظفير... وغيرها من المواضع الموجودة في غرناطة، اشتد الجوع بين السكان حتى صار المسلمون يستخدمون أسلوب النهب

¹ علي حسن الشطشطا، نهاية الوجود العربي في الأندلس، ج1، دار الفناء للطباعة والنشر والتوزيع، مصر، د.ت، د.ط، ص 66.

² - عبد الحكيم الذنون، المرجع السابق، ص 51.

³ - راغب السرجاني، المرجع السابق، ص 683.

⁴ - شكيب أرسلان، المرجع السابق، ص 324.

⁵ - نصر الله سعدون، تاريخ العرب السياسي، المرجع السابق، ص 396.

والسلب، ضف إلى ذلك قطع الطرق على قوافل النصارى ليلاً، كما أنهم قاموا بذبح خيولهم ولأكل التي هي عماد قوتهم لمهاجمة العدو¹.

ومنعوا من مزاوله نشاطاتهم الزراعية²، فضاقت الحال عليهم وفر الكثير منهم بسبب الجوع إلى البشرات³.

وعندما دخل شهر محرم 897هـ، تأكد الغرناطيون من استحالة رفع الحصار خاصة بعد دخول فصل الشتاء وقطعت عنهم المؤونة بسبب نزول الثلوج والأمطار⁴.

بعد حصار دام سبعة أشهر صمد من خلالها الغرناطيون وفشلت محاولات الاقتحام المتكررة، أدرك أبو عبد الله الصغير أنه لا جدوى من المقاومة، ولا بد من التفاهم مع الإسبان للتسليم مقابل شروط⁵ من بينها:

- تأمين المسلمين على أنفسهم وأهلهم وأموالهم وإبقاء الناس في أماكنهم ودورهم وعقائدهم.
- أن يعامل الملك أبو عبد الله وسائر السكان برفق وكرامة⁶.
- أن تبقى المساجد والأوقاف كما كانت.

2- تسليم الملكة (المدينة)

كانت الظروف الموجودة في غرناطة تنذر بزوال الوجود العربي الإسلامي، حيث اجتمعت خيانة أبو عبد الله ووزرائه معاناة الغرناطيين من ويلات الحصار وانقطاع المؤونة والمدد، فلم يكن هناك سبيل سوى الموت أو المقاومة⁷.

¹ - إيرفنج واشنطن، أخبار سقوط غرناطة، تر: هاني يحيى نصري، مؤسسة الانتشار العربي، لبنان، 2000، ط1، ص 396.

² - المقرئ، نفح الطيب، المصدر السابق، ج4، ص 525.

³ - محمد المنوي وآخرون، التاريخ الأندلسي من خلال النصوص، شركة للنشر والتوزيع للمدارس، المغرب، 1991، ط1، ص 251.

⁴ - مؤلف مجهول، نبذة العصر، المصدر السابق، ص 39.

⁵ - أسعد حومد، المرجع السابق، ص 146.

⁶ - الناصري، الاستقصاء، الدولة المرينية ق2، ج2، ص 104.

⁷ - عبد الله عنان، نهاية الأندلس، المرجع السابق، ج4، ص 243.

وقع اختيار الجماعة التي اتفقت على تسليم المدينة ومفاوضة ملك قشتالة على الوزير أبو القاسم عبد الملك¹، الذي كلف في أواخر سنة 896هـ/1491م، للقيام بهذه المهمة، فاستقبله الملك فرديناند في معسكر سانتافي²، وكان الغرناطيون بكل ترقب وقلق نتائج هذه المحادثات، التي استغرقت عدة جلسات حتى توصلوا إلى الشروط النهائية³، قرر فيها النصارى إعطاء مهلة سبعين يوماً للمسلمين قصد الحصول على أي مساعدة من المغرب، إلا أنهم ولم يتلقوا أي استجابة وفي هذه الحالة يجب تسليم مدينة غرناطة وأن يطلق جميع أسرى النصارى بدون فدية⁴.

وبعد ما عاد الوزيران أبو القاسم عبد الملك وابن كماشة، يحملان شروط التسليم، أجمع أبو عبد الله الفقيه وكبار الجماعة في بهو الحمراء الكبير⁵

وقرأ عليه أبو القاسم الشروط، فأجهش الكل بالبكاء ولج بالعويل، إلا موسى بن أب الغسان الذي بقي ثابت الجأش عصي الدمع، محاولاً أن يث فيهم روح التحدي⁶، ولكن سكان غرناطة وضعوا ثقتهم الكاملة في يد النصارى دون مراعاة العواقب، لأنهم فقدوا الأمل من وصول أي مساعدة بعد انتظار 70 يوماً، فكتبوا بيعتهم لملك قشتالة⁷، ما عدا أبي الغسان رفض التوقيع ونهض غاضباً من المجلس، وصاح فيهم يحذرهم ويذكرهم بخداع ومكر النصارى⁸، وقال لهم: "إنه لخير لي أن أحصى بين الذين ماتوا دفاعاً عن غرناطة، من أحصي من الذين شهدوا تسليمها"⁹، ثم ذهب إلى

¹ - نصر الله سعدون، تاريخ العرب السياسي، المرجع السابق، ص 397.

² - الكتاني، المرجع السابق، ص 54.

³ - واشنطن إرفينغ، المرجع السابق، ص 398.

⁴ - شكيب أرسلان، المرجع السابق، ص 329.

⁵ - مؤلف مجهول، نبذة العصر، المصدر السابق، ص 41.

⁶ - شكيب أرسلان، المرجع السابق، ص 330.

⁷ - مؤلف مجهول، نبذة العصر، المصدر السابق، ص 41.

⁸ - نصر الله سعدون، تاريخ العرب السياسي، المرجع السابق، ص 389-399.

⁹ - عبد الحكيم الذنون، المرجع السابق، ص 51.

بيته أخذ سلاحه وامتنطى جواده، وانطلق يقابل إحدى سرايا النصارى المتكونة من خمسة عشر رجلاً، فقتل معظمهم ثم قتل في سبيل الله¹.

قَبِلَ مالك قشتالة معاهدة التسليم التي ختمت بالشمع الملكي الأحمر²، بتاريخ 31 محرم 897هـ/ 25 نوفمبر 1491م³.

وانتهت بتعهد الملكان وعظماء المملكة النصرانية بتنفيذ جميع الشروط والمحافظة على محتوياتها مهما كانت الأسباب⁴، وتنازل سلطان غرناطة عن الحمراء⁵.

وفي حقيقة الأمر هناك اتفاقتان، الأولى سرية والتي أبرمت في نفس اليوم الذي وقعت فيه معاهدة تسليم غرناطة⁶، وقعها أبو عبد الله الصغير مع فرديناند وإيزابيلا، وافق بموجبها سلطان غرناطة على تسليم المدينة للملكين الكاثوليكين مقابل امتيازات مادية لأبي عبد الله وأفراد أسرته وحاشيته⁷، وإعطائه حق الملكية الأبدية لمنطقة البشرات حول أندرش وعذرة⁸، زيادة على ذلك الاحتفاظ بأملاك أبيه أبي الحسن ... إلخ⁹.

¹ - راغب السرجاني، المرجع السابق، ص 687.

² - واشنطن، المرجع السابق، ص 399.

³ - الكتاني، المرجع السابق، ص 55.

⁴ - عبد الواحد ذنون طه، حركة المقاومة العربية الإسلامية في الأندلس بعد سقوط غرناطة، دار المدار الإسلامي، ليبيا، 2004، ط1، ص 11/ محمد عبد عنان، المرجع السابق، ع4، ص 251.

⁵ - المقري، نفع الطيب، المصدر السابق، ج 4، ص 525.

⁶ - الكتاني، المرجع السابق، ص 52.

⁷ - عبد الحكيم الذنون، المرجع السابق، ص 52.

⁸ - عذرة: بلدة من أعمال ألميرية يصب في شواطئها نهر يحمل هذا الاسم يتولد من سلسلة جبال غرناطة وألميرية، ينظر:

مؤلف مجهول، نبذة العصر، المصدر السابق، ص 43.

⁹ - الكتاني، المرجع السابق، ص 56.

أما الاتفاقية الثانية علنية اختلف المصادر التاريخية حول عدد بنودها، فهناك من يقول سبعة وستين شرطاً¹، وهناك من يقول أنها ستة وخمسون مادة²، وهي محاولة التغطية بما اتفق عليه أبو عبد عبد الله الصغير مع الملكين سرا، وإيضفاء الشرعية على هذا الاتفاق³.

ساد الخوف في غرناطة وكثرت الشائعات من غدر السلطان والوزراء، بعدما حققوا مكاسب من عملية الاستسلام، فخشي السلطان أبو عبد الله من الانقضاض عليه⁴، وأدرك أن التمسك بالهدنة التي عقدها مع النصارى لمدة سنتين في 25 نوفمبر 1490م، لا تؤدي إلا للمزيد من التأخير في المعانة والاضطرابات، فأرسل في نهاية شهر كانون الثاني من نفس السنة وزيره الأكبر بن كماشة مع أربعة مائة رهينة وأسير لديه وبعض الهدايا الخاصة إلى الملك فرديناند دلالة على حسن نيته⁵.

فتحت المدينة أبوابها فجر كانون الثاني 897هـ/1492م، ودخل نفر من القشتاليين⁶، فغادر أبو عبد الله من بوابة الحمراء بمرافقة جميع فرسانهم تاركاً وزيره بن كماشة ليسلم لهم القصر، وبعدها أقيمت كل المراسيم لتسليم هذه المدينة حسب الشعائر الدينية الصليبية⁷، وسلم الوزير مفاتيح الحمراء الحمراء إلى الملك فرديناند⁸.

وهو بدوره أعطاها إلى "الكونت دي تنديلا" الذي عين فيها حاكماً على المدينة وفتحت أبواب الحمراء على مصراعيها للجيش الصليبي الذي تدفق من بوابات سانتافي⁹، وبلغت درجة الانحطاط لسلطات الغرناطية إلى تقبيل يد الملك أثناء تسلّم ابنه الذي كان رهينة عندهم¹⁰.

¹ - المقرئ، نفع الطيب، المصدر السابق، ج 4، ص 525.

² - عبد الله عنان، نهاية الأندلس، المرجع السابق، ع4، ص 244.

³ - عبد الحكيم الذنون، المرجع السابق، ص 52.

⁴ - نصر الله سعدون، تاريخ العرب السياسي، المرجع السابق، ص 399.

⁵ - واشنطن، المرجع السابق، ص 402-404.

⁶ - شكري فرحات، المرجع السابق، ص 54.

⁷ - واشنطن، المرجع السابق، ص 404-405.

⁸ - أسعد حومد، المرجع السابق، ص 146.

⁹ - واشنطن، المرجع السابق، ص 406.

¹⁰ - شكيب أرسلان، المرجع السابق، ص 340.

دخل النصارى الحمراء بعدما استوثقوا من أهل غرناطة¹، أما أبو عبد الله لم يستطع مشاهدة النصارى وهم يدخلون العاصمة لذلك أخذ جماعته المخلصة له وعائلته إلى وادي برشانة. توقف أبو عبد الله على بعد أميال من المدينة عند جبل الريحانة، وألقى نظره الأخيرة على غرناطة²، وأخذ يبكي في هذا الموقف، قالت أمه: "عائشة الحرة" مقولتها الشهيرة: "الحق أن تبكي مثل المرأة على ما لم تستطع الدفاع عنه كالرجل"، فسمي هذا المحل "فج الله الأكبر"، ولم يهدأ الملك إلا أن رفع العلم الإسباني ونكس العلم الغرناطي، وبعد أفضل جديدة من المعاناة ونكث العهود وخرق بنود اتفاقية غرناطة³.

3- نتائج سقوط غرناطة:

بعدما استولى النصارى على أعز دولة إسلامية بالأندلس، تم تعيين حكام على غرناطة، أوصاهم الملكين في البداية بالرفق بأهل غرناطة واحترام بنود معاهدة الاستسلام "لتمويه المسلمين"⁴، إلا أن التعصب الصليبي والكراهية عميقة للعرب المسلمين، لم تسمح للإسبان بتنفيذ هذه البنود ولا المحافظة على عهودهم وعدم وفائهم بوعودهم، فأصبحوا يصطنعون سياسة تقوم على قمع واضطهاد مسلمي غرناطة⁵، لقوله تعالى ﴿كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ﴾⁶.

كان لعبد الله الصغير إطلاع على الذين تعرضوا إلى غدر النصارى، وذلك بعد اختراقهم الشروط المتفق عليها مع المسلمين، ثم أمره فرديناند بالانتقال إلى قرية أندرش من قرى البشرة، فارتحل

¹ - الناصري، المرجع السابق، ج 4، ص 104.

² - أسعد حومد، المرجع السابق، ص 146.

³ - جمال يجياوي، المرجع السابق، ص 39.

⁴ - الكتاني، المرجع السابق، ص 59.

⁵ - عبد العزيز سالم، بحوث مشرقية ومغربية في التاريخ والحضارة الإسلامية، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، 2009،

د.ط، ص 233.

⁶ - سورة التوبة، الآية 08.

أبو عبد الله بعياله وحشمه وأقام بها ينتظر ما يأمره به، ثم أظهر العدو النوايا الحقيقية اتجاه السلطان فاحتال في التخلص منه، ونفيه إلى العدو الأخرى¹.

عانى أبو عبد الله الذل والهوان، لدرجة أنه باع أملاكه للإسباني بثمانين ألف دينار²، ثم جهز نفسه للرحيل إلى فاس سنة 1493م، رفقة ستة آلاف عربي مسلم³ ممن أرادوا الجواز، وبقي بفاس إلى أن مات سنة 944هـ/1534م⁴.

لقد كان في ظن الغرناطيين أنهم سيجدون ملاذهم واستقرارهم في المغرب إلا أنهم وجدوا حال المغرب، أسوأ من حال الأندلس، فقفلوا عائدين إلى بلادهم وعزموا على الإقامة والدجن⁵.

اختلف مصير الغرناطيين حسب ثباتهم على الإسلام وعلى حسب الغدر والمكر الذي عانوا منه بسبب النصارى⁶، ولما سمع فرديناند أن الناس تركوا الجواز وعزموا على الاستيطان والمقام في الوطن الوطن أخذ في نقض ما تبقى من الشروط، وزالت حرمة المسلمين وأدركهم الهوان والذلة واستطال عليهم النصارى، وبدأت المضايقات بفرض المغارم وقطع الأذان في الجوامع، تحويل المساجد إلى كنائس ومصادرة الأراضي، حيث أمرهم بالخروج من غرناطة إلى القرى⁷.

استمر فرديناند في نكث العهود إلى حمل المسلمين على التنصير سنة 904هـ، وأكرههم في استعمال كل الطرق، حيث قاموا بإقناع الرجل المسلم بأن جده كان نصرانيا ثم أسلم، فثار أهل

¹ - المنوني وآخرون، المرجع السابق، ص 247.

² - عبد الحميد بن شنهو، أبو عبد الله آخر ملوك غرناطة، دفين تلمسان أم فاس، مجلة الأصالة، ع 25، الجزائر، 1971، ص 247.

³ - عبد الواحد طه، المرجع السابق، ص 13.

⁴ - عبد الحميد بن شنهو، المرجع السابق، ص 277.

⁵ - المقرئ أزهار الرياض، المصدر السابق، ج 1، ص 68.

⁶ - أحمد محمد عطيات، الأندلس من السقوط إلى محاكم التفتيش، دار الأمواج للنشر والتوزيع، عمان، 2015، ط 1، ص 125.

⁷ - أحمد محمد عطيات، المرجع السابق، ص 130.

البيازين على الحكم وقتلوهم¹، وهذا كان السبب للتصير بحجة أن كل من خرج عن الحكم، فجزاءه إما الموت أو التصير، لذلك تنصروا على آخرهم بادية وحاضرة².

في حين امتنع قوم عن التصير وأرادوا الدفاع عن أنفسهم كأهل قرية بلفيق وأندرش، فجمع لهم فرديناند جموعه وأخذهم عنوة بعد قتال وارتكب جرائم في حق النساء والصبيان³.

بعدما أصبح وجود بعض المسلمين يشكل خطراً على الدولة الكاثوليكية⁴ تغيرت خطة التصير، خاصة بعد قدوم الكاردينال سينروس إلى غرناطة سنة 904هـ/1499م⁵، حيث اشتد في البحث عن هؤلاء المسلمين الذين أظهروا تنصرهم وأحقوا إسلامهم حتى أنهم أحرقوا الكثير منهم⁶، ومنعواهم من حمل الأسلحة بأنواعها ومضى الإسبان في سياستهم التعسفية، إلى أن صارت الأندلس كلها دار كفر ولم يبق من يجهر بكلمة التوحيد، جعلت في المساجد النواقيس والصلبان⁷، ومن الذين الذين تنصروا هم جماعة من الأمراء والأعيان منهم الأمير سعد ونصر ابن السلطان أبي الحسن، كما رجعت أهمها ثريا إلى دينها النصراني⁸.

وبعدما عمد النصارى إلى اتخاذ إجراءات أشد وطأة من المورسكيين⁹، من أجل تصفية الوجود العربي الإسلامي، حيث ألزمهم بإحضار جميع كتبهم ومخططاتهم إلى الساحة العامة، وأحرقوهم

¹ - محمد المنوني وآخرون، المرجع السابق، ص 447.

² - الحجى، المرجع السابق، ص 572.

³ - الفقى، المرجع السابق، ص 316.

⁴ - سلمى خضراء الجيوسي، الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس، مركز الدراسات الوحدة العربية، لبنان، 1998، ط1،

ج1، ص 135.

⁵ - المنوني، المرجع السابق، ص 247.

⁶ - محمد لعروسي المطوي، المرجع السابق، ص 251.

⁷ - المقرئ، أزهار الرياض، المصدر السابق، ج 1، ص 69.

⁸ - الكتاني، المرجع السابق، ص 60.

⁹ - المورسكيين: بالإسبانية moricos وهو تعبير كلمة motio وسمون كذلك المواركة، وسبب اختيارهم لهذا الاسم للتفريق بين الأندلس سكنوا شيه الجزيرة الإيبيرية قبل سقوطها والعرب المسلمين الذين تم تنصيرهم منذ سقوط غرناكة، ينظر: عبد الواحد طه، المرجع السابق، ص 16.

ليقطعوا عن المسلمين ارتباطهم بثقافتهم¹، ثم استحدثوا ما يسمى بمحاكم التفتيش²، التي واصلت عملها بتتبع المخالفين، مارست فيها أشنع أنواع التعذيب وأزهقت الآلاف من أرواح المسلمين³، لكن هذا الأمر لم يزد للأندلسيين إلا صموداً وتمسكاً بشخصيتهم ودينهم ونظراً للروح الثائرة التي اتصف بها هؤلاء فما كادت تنطفئ المعارك بين البيازين عام 904هـ/1499م، والبشرات عام 906هـ/1501م، حتى كان سكان الجبل الأحمر قد حملوا السلاح وخاضوا معارك عنيفة أدرك خلالها النصارى استحالة تنصرهم⁴، ففي سنة 1609م، صدر القرار الأخير بالطرد الجماعي منهم من نقلوا إلى الموانئ الإفريقية، وآخرون نفروا إلى مختلف البلاد الإسلامية على البحر المتوسط⁵.

إن نهاية سقوط مملكة غرناطة، كانت عبارة عن نهاية لبلاد الأندلس الإسلامية، ودخولها في مرحلة جديدة تحت حكم النصارى.

¹ - أحمد محمد عطيات، المرجع السابق، ص 131-139.

² - **محاكم التفتيش**: كانت محاكم التفتيش في إسبانيا منذ القرن الثاني عشر ميلادي هدفها محاربة الهرطقة ونشط ديوان لتحقيق أو الديون المقدسة، الذي يدعمه العرش والمكينة لارتكاب الفضائح ضد المسلمين المورسكين، حتى اليهود وبعض النصارى كانوا ضحايا محاكم التفتيش، ينظر: محمد عطيات، المرجع نفسه، ص ص 159-186.

³ - أحمد محمد عطيات، المرجع نفسه، ص 160.

⁴ - عادل سعيد البشتاوي، المرجع السابق، ص 15.

⁵ - مصطفى شاکر، المرجع السابق، ص 157.

خاتمة

لقد كان للحروب والفتن التي ظهرت بالأندلس مع نهاية القرن الخامس هجري، الحادي عشر ميلادي أثر كبير في خسارة المسلمين لبلاد الأندلس، هذه الخسارة نجم عنها تغير كبير في نهاية الوجود الإسلامي بهذا الإقليم الأوروبي ولاسيما الأندلس.

خلصنا إلى عدة نتائج واستنتاجات على الشكل التالي:

- لقد كان لسياسة الطوائف القائمة على حب الذات وتتبع المصلحة حتى ولو كانت في عدوهم، آثار وخيمة بهم إلى مالا يحمد عقباه، وهو سقوط أهم مدن الأندلس وهي طلييلة على يد ألفونسو السادس (478هـ/1085م) والتي بسقوطها يكمن أن نقول سقطت الأندلس كلها.

- ما كان أمام ملوك الطوائف بعد تعرضهم لهذه النكبة، إلا حل واحد لا بديل له وهو الاستعانة بالمرابطين، فاستجاب يوسف بن تاشفين وعبر إلى الأندلس، وانتصر على النصارى في ما يعرف بمعركة الزلاقة 479هـ، والتي أحدثت تغييرا في أرض الأندلس، كما ساهمت في ردع وإضعاف الزحف النصراني على مدن الأندلس، وأجلت سقوطها لقرابة القرنين من الزمن.

- ما لبث أن حقق يوسف انتصارات باهرة ورجع إلى المغرب حتى عاد ملوك الطوائف إلى سابق عهدهم، وهذا ما أكد ليوسف بن تاشفين أنهم كانوا هم السبب الأول وراء ما آلت إليه الأندلس وأهلها، لذلك وجب خلع حكام الطوائف، السبب الأول وراء ما آلت إليه الأندلس وأهلها، لذلك وجب خلع حكام الطوائف، خصوصا بعدما رآه في حصار لحسن الليط من انشقاق وتفرق بينهم.

- بوفاة يوسف بن تاشفين وتولى ابنه علي زمام الأمور، اضطرت حال الأندلس وبعد مدة دخلت في عهد جديد وهو عهد الدولة الموحدية، ويسميه بعض المؤرخين عصر ملوك الطوائف الثاني.

- دولة الموحدين هذه الدولة العظيمة التي أمدت الأندلس عمرا جديدا، أو بالأحرى أملا في الماضي قدما، وتجسد ذلك في معركة الأرك التي هزم فيها النصارى شر هزيمة، وارتفع فيها نجم الموحدين، والروح المعنوية لمسلمي الأندلس بعد أن نزل بهم الويل والهلاك من قبل النصارى الإسبان، هذه المعركة دخلت سجل التاريخ الإسلامي المجيد وسجلت على صفحات الزمان بماء الذهب الصافي.

- إلا أنها وفيما بعد تلقى الدولة الموحدية حذفها في معركة العقاب، والتي كانت سببا في سقوط دولة الإسلام في الأندلس.
- بعد انهيار الدولة الموحدية وسقوط مدن الأندلس الواحدة تلو الأخرى، لم يبقى للمسلمين سوى غرناطة لتكون آخر معقل للمسلمين، والتي تأسست بها دولة بني الأحمر ومشرق، بقدر ما هو مأساوي تكتسيه الكثير من الأحزان والمآسي، حيث أنها أرادت أن تحافظ على الكيان السياسي للمسلمين والتواجد الإسلامي بالأندلس، إلا أنها لم تتمكن من تحقيق ذلك وبقيت معزولة منفردة تواجه مصيرها المحترم لوحدها.
- ما زاد في تأزم الأمور وتفاقم الخطر النصراني، هو الزواج السياسي الذي تم بين كل من إيزابيلا ملكة قشتالة وفردنيناند ملك الأراغون.
- يتضح مما سبق أن الأندلس كانت تخظى دائما بمساندة إخوانها في الدعوة المغربية، فقد حرص المرينين على وحدة العالم الإسلامي، وذلك من خلال تمكين جبهتهم الداخلية وتوجيه طاقمهم نحو حماية مملكة غرناطة الأندلسية المعرضة للانهيار، فساهم ذلك في تعزيز غرناطة وإطالة عمرها وبالمقابل أدت سياسة غرناطة المتشككة اتجاه بني مرين إلى تحالفها مع النصارى الإسبان، مما أدى سقوط العديد من القواعد الأندلسية.
- لم تحظى الأندلس بمساعدة الدولة المرينية فحسب، بل تعدى ذلك إلى المساعدات الزبانية والحفصية والتي كانت لهم مجهودات في تقوية نفوذ الأندلسيين فترة من الزمن.
- بالنسبة للزبانيين كان لهم دور في الجانب المادي أكثر من الجانب العسكري، وهذا الأمر يمكن إرجاعه إلى الظروف التي كانت تعيشها هذه الدولة، فهي لم تكن قادرة على حماية حتى نفسها ولم يكن بها أسطول يعتمد عليه في المجال العسكري، فيما يخص الدولة.
- وفيما يخص الدولة الحفصية فهي الأخرى لعبت دور فعال في تاريخ الأندلس، فقد كانت لها إمدادات على جانب الصعيدين المادي والعسكري.

- غرناطة هاته الدولة الصغيرة التي وجدت في فترة من الزمان، منطوقة بموقعها جنوب الأندلس، كانت تجربة تستحق التنويه والتمجيد فرغم كل الصعاب والمآسي التي تعرضت لها، إلا أنها بقيت مدة قرنين من الزمن، هذه الكلمة صغيرة في قولها لكن كبيرة في معناها، إذا قلنا غرناطة ففحامة إلا الاسم تكفي، فنحن نعني بذلك كيان المسلمين وحضارتهم وتاريخ الأمم التي سبقتهم، كيف لهم يتقبلوا فكرة سقوطها وأنها أصبحت بلد نصراني.

- وما يمكن قوله عن غرناطة هو أنها تركت لنا أعمال جليلة سيذكرها التاريخ للأجيال المتعاقبة.

الملاحق

الملحق رقم 01:

رسالة المعتمد بن عباد إلى يوسف بن تاشفين يستصرخه فيها ضد ألفونش السادس¹

"بسم الله الرحمن الرحيم، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً، إلى حضرة الإمام المؤمنين وناصر الدين محي دعوة الخليفة الإمام أمير المؤمنين أبو يعقوب يوسف بن تاشفين القائم بعظيم إكبارها الشاكر لإجلالها، المعظم لما عظم الله من كريم مقدارها، اللائد بجرمها المنقطع إلى سمو نجدها من المستجير بالله محمد بن عباد، سلام كريم يخص بالحضرة المعظمة السامية ورحمة الله تعالى وبركاته، كتب المنقطع إلى سلطانها من اشبيلية في غزة جمادى الاولى سنة 479هـ وانه ايد امير المسلمين، ونصرية الدين فأنا نحن العرب بهذا الاندلس قد تلفت قبائلنا وتفرق جمعنا، وتغيرت انساينا بقطع عنا من صنعتها قرصنا فيها شعوبا لاقبائل، واشتاتا لا قرابة ولا عشائر، فقل نصرنا وكثر شامتنا، وتولى علينا هذا العدو والمجرم اللعين أد فونش، وأنا بطليظة ووطئها بقدمه، وأسر المسلمين، وأخذ البلاد والقلاع والحصون، ونحن أهل هذه الاندلس لا ليس لأحد منا طاقة على نصره داره ولا أخيه، ولو شاعوا لفعلوا، إلا أن الهواء والماء منعهم عن ذلك، وقد ساءت الاحوال وانقطعت الامال، وانت ايدك الله ثم بك، اشغثت بجرمكم لتجوز لجهاد هذا العدو الكافر، وتجبون شريعة الاسلام وتدنون على دين محمد عليه الصلاة والسلام ولكم بذلك عند الله الثواب الكريم، والاجر العظيم والسلام على حضرتكم السامية ورحمة اله وبركاته، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم".

¹ - مجهول، الحلل الموشية، المصدر السابق، ص ص 32-35.

الملحق رقم (02): ملحق سري لمعاهدة الاستسلام²

وفي نفس اليوم الذي وقعت فيه معاهدة تسليم غرناطة، وهو يوم 25 نوفمبر سنة 1491م، وفي نفس المكان الذي وقعت فيه، وهو المعسكر الملكي بمرج غرناطة، أبرمت معاهدة أخرى أو ملحق سري للمعاهدة الأولى، يتضمن الحقوق والامتيازات والمنح، التي تعطى للسلطان أبي عبد الله، ولأفراد أسرته وحاشيته، وذلك متى نفذ تعهداته التي تضمنتها المعاهدة من تسليم غرناطة والحمراء وحصونها. وتتلخص هذه الحقوق والامتيازات والمنح فيما يأتي:

1. أن يمنح الملك الكاثوليكيان لأبي عبد الله ولأولاده وأحفاده ورثته إلى الأبد حق الملكية الأبدية فيما يملكانه من محلات وضياع في بلاد برجة ودلالية، ومرشانة ولوشار وأندرش وأجيجر وأرجبة، وبضعة بلاد أخرى مجاورة، وكل ما يخصها من الضرائب وحقوق الربيع، وما بها من الدور والأماكن والقلاع والأبراج، لتكون عليها له ولأولاده وأعقابه وورثته في حق الملكية الأبدية، يتمتع بكل رعيها وعشورها وحقوقها، وأن يتولى القضاء النواحي المذكورة باعتباره سيدها، وباعتباره في الوقت نفسه تابعا وخاضعا لجلالتهما، وله حق بيع الأعيان المذكورة ورهنها، وأن يفعل بها ما شاء ومتى شاء، وأنه أراد بيعها، فإنه يعرض ذلك أولا على جلالتيهما فإذا لم يريد شراءها، فله أن يبيعها لمن شاء.

2. وأن يحتفظ جلالتيهما بلقعة أدرة وسائر القلاع الواقعة على الشاطئ.

3. وأن يعطى جلالتهما إلى الملك المذكور مولاي أبي عبد الله، هبة قدرها ثلاثون ألف جنيه قشتالي من الذهب (كاستيليانو) بيعتان بما إليه، عقب تسليم الحمراء، وقلاع غرناطة الأخرى التي يجب تسليمها، وذلك في الموعد المحدد.

4. وأن يهب جلالتهما للملك المذكور كل الأراضي والرحى والحداثق، والمزارع التي كان يملكها أيام أبيه السلطان أبي الحسن، سواء في غرناطة أو في البشرات، لتكون ملكا له ولأولاده ولعقبه ولورثته، ملكية أبدية وله أن يبيعها أو يرهنها وأن يتصرف فيها كيفما شاء.

² - ينظر: نصر الله سعدون، المصدر السابق، ص ص 407-409.

5. وأن يهب جلالتهما أيضا إلى الملكات والدته وأخواته وزوجته، وإلى زوجة أبي الحسن، كل الحدائق والمزارع والأراضي والطواحين والحمامات، التي يملكها في غرناطة والبشرات، تكون ملكا لهن ولأعقابهن إلى الأبد، ولهن بيعها ورهنها والتمتع بها وفقا لما تقدم.
6. وأن تكون سائر الأراضي الخاصة بالملك المذكور والملكات المذكورات، وزوجة مولاي أبي الحسن، معفاة من الضرائب والحقوق الآن وإلى الأبد.
7. وألا يطلب جلالتهما وأعقابهما إلى ملك غرناطة أو حشمه أو خدمة رد ما أخذوه في أيامهم سواء من النصرى أو المسلمين من الأموال والأراضي.
8. وأنه إذا شاء الملك المذكور أبو عبد الله، والملكات المذكورات، وزوجه مولاي أبي الحسن وأولادهم وأحفادهم وأعقابهم، وقوادهم وخدمهم وأهل دارهم، وفرسانهم وغيرهم، صغارا أو كبارا، العبور إلى المغرب، فإن جلالتهما يجهازان الآن أو في أي وقت سفينتين لعبور الأشخاص المذكورين، متى شاءوا، تحملهم وكل أمتعهم وسلاحهم، وذلك دون أية أجرة أو نفقة.
9. وأنه إذا لم يتمكن الملك المذكور وأولاده وأحفاده وأعقابهم، والملكات المذكورات، وزوجة مولاي أبي الحسن، والقواد والحشم والخدم، وقت عبورهم إلى المغرب، من بيع أملاكهم المشار إليها، فإن لهم أن يوكلوا من شاء ولقبض ريعها، وإرساله حيث شاءوا دون أي قيد أو مرغم.
10. وأنه يحق للملك المذكور متى شاء، أي يرسل من يرى خدمه أو قاداته إلى المغرب بسلع أو غيرها من إيراداته، وذلك دون قيد.
11. وأنه يحق للملك المذكور متى خرج من غرناطة أن يسكن أو يقيم متى شاء، في الأراضي التي أقطعت له، وأن يخرج هو وخدمه وقواده وعلمائه وقضاته وفرسانه، الذين يريدون الخروج معه، يخليهم وماشيئهم متقلدين أسلحتهم، وكذلك خدمهم، وألا يؤخذ منهم شيء سوى المدافع، وألا يفرض عليهم الآن أو في أي وقت، وضع علامة خاصة في ثيابهم أو بأي صورة، وأن يتمتعوا بسائر الامتيازات المقررة في عهد تسليم غرناطة.
12. وأنه في اليوم الذي يتم فيه تسليم الحمراء وحصونها، يصدر جلالتهما المراسيم اللازمة بالمنح المذكورة، موقعة ومختومة ومصادق عليها من ابنهما الأمير والكاردينال وسائر العظماء.

الملحق رقم (03): بنود معاهدة استسلام غرناطة العلنية

1. أن يتعهد ملك غرناطة والقادة، والفقهاء والوزراء والعلماء، كافة الناس، سواء في غرناطة والبيازين وأراضهما بأن يسلموا طواعية واختياراً وذلك في ظرف ستين يوماً تبدأ من تاريخ هذه المعاهدة، قلاع الحمراء والحصن، وأبوابها وأبراجها، وأبواب غرناطة والبيازين، إلى الملكيين الكاثوليكين، أو إلى من يندبانه من رجالهما، على ألا يسمح النصراني أن يصعد إلى الأسوار القائمة بين القسبة والبيازين، حتى لا يكشف أحوال المسلمين، وأن يعاقب من يفعل ذلك، وضمناً لسلامة هذا التسليم، يقدم الملك المذكور مولاي أبو عبد الله والقادة المذكورون، إلى جلالتيهما، قبل تسليم الحمراء بيوم واحد، خمسمائة شخص صحبة الوزير ابن كماشة من أبناء وإخوة زعماء غرناطة والبيازين، ليكونوا رهائن في يديهما لمدة عشرين يوماً، تصلح خلالها الحمراء، وفي نهاية هذا الأجل يرد أولئك الرهائن أحراراً، وأن يقبل جلالتيهما، ملك غرناطة وسائر القادة والزعماء وسكان غرناطة والبشرى وغيرها من الأراضي، رعايا أتباعاً تحت حمايتيها ورايتيها.
2. وأنه حينما يرسل جلالتيهما رجالهما لتسلم الحمراء، فعليهم أن يدخلوا من باب العشار ومن باب نجدة، ومن طريق الحقول الخارجية، وألا يسيروا إليها من داخل المدينة، حينما يأتون لتسلمها وقت التسليم.
3. وأنه متى تم تسليم الحمراء والحصن، يرد إلى الملك المذكور مولاي أبي عبد الله ولده المأخوذ رهينة لديهما، وكذلك يرد سائر الرهائن المسلمين الذين معه، وسائر حشمه الذين يعتنقوا النصرانية.
4. ويتعهد جلالتيهما، وخلفاؤهما إلى الأبد، بأن يترك الملك المذكور أبو عبد الله والقادة، والوزراء، العلماء، والفرسان، وسائر الشعب، تحت حكم شريعتهم، وألا يأمرؤا بترك شيء من مساجدهم وصوامعهم، وأن ترك لهذه المساجد مواردها كما هي، وأن يقضي بينهم وفق شريعتهم وعلى يد قضائهم، وأن يحتفظوا بتقاليدهم وعوائدهم.
5. وألا يؤخذ منهم خليهم أو ملاحهم الآن أو فيما بعد، سوى المدافع الكبيرة، والصغيرة فإننا تسلم.

6. وأنه يحق لسائر سكان غرناطة والبيازين وغيرها، الذين يريدون العبور إلى المغرب، أن يبيعوا أموالهم المنقولة لمن شاءوا، وأنه يحق للملكين شراءها بمالهما الخاص.
7. أنه يحق للسكان المذكورين أن يعبروا إلى المغرب، وأن يذهبوا أحرارا إلى أية ناحية أخرى، حاملين أمتعتهم وسلعهم، وحليهم من الذهب والفضة وغيرها، ويلتزم المكان بأن يجهز في بحر ستين يوما من تاريخه، عشر سفن في مواينها يعبر فيها الذين يريدون الذهاب إلى المغرب، وأن يقدموا خلال الأعوام الثلاثة التالية السفن، لمن شاء العبور، وتبقى السفن خلال هذه المدة تحت طلب الراغبين فيه، ولا يقتضي منهم خلال هذه المدة أي أجر أو مغرم، وأنه يحق العبور لمن يشاء بعد ذلك، نظير دفع مبلغ "دوبل" واحد عن كل شخص، وأنه يحق لكل من لم يتمكن من بيع أملاكه، أو يوكل لإدارتها، وأن يقتضى بيعها حيثما كان.
8. وألا يرغم أحد من المسلمين أو أعقابهم، الآن أو فيما بعد، على تقلد شارة خاصة يحم.
9. وأن ينزل الملك، للملك أبي عبد الله المذكور، ولسكان غرناطة والبيازين وأراضهما، لمدة ثلاث سنوات تبدأ من تاريخه عن سائر الحقوق التي يجب عليهم أدائها عن دورهم ومواشيهم.
10. وأنه يجب على الملك أبي عبد الله، وسكان غرناطة والبيازين وأراضهما والبشرات وأراضيهما، أن يسلموا المدينة طواعية ودون أية فدية سائر الأسرى النصراني الذين تحت أيديهم.
11. وأنه لا يسمح لنصريي، أن يدخل مكانا لعبادة المسلمين دون ترخيص ويعاقب من يفعل ذلك.
12. وألا يولى على المسلمين مباشر يهودي، أو يمنح أي سلطة أو ولاية عليهم.
13. وأن يعامل الملك أبو عبد الله المذكور، وسائر السكان المسلمين برفق وكرامة، وأن يحتفظوا بعوائدهم وتقاليدهم، وأن يؤدي للفقهاء حقوقهم المأثورة وفقا للقواعد المرعية.
14. وأنه إذا قام نزاع بين المسلمين، فصل فيه وفقا لأحكام شريعتهم، وتولاه قضائهم.
15. وألا يكلفوا بإيواء ضيف أو تؤخذ منهم ثياب أو واجن أو أطعمة أو ما شابه أو غيرها دون إرادتهم.

16. وأنه إذا دخل نصراني منزل مسلم قهرا لاعنه، عوقب على فعله.
17. وأنه فيما يتعلق بشؤون الميراث، يحتفظ المسلمون بنظمهم، ويحتكون إلى فقهاءهم وفقا لسنن المسلمين.
18. وأنه يحق لسائر سكان غرناطة والبشرات وغيرها في هذا العهد، الذين يعلنون الولاء لجلالتهما في ظرف ثلاثين يوما من التسليم، أن يتمتعوا بالإعفاءات الممنوحة، مدى السنوات الثلاث.
19. وأن يبقى دخل الجوامع والهيئات الدينية أو أية أشياء أخرى مرصودة على الخير، وكذا دخل الدارس، متروكا لنظر الفقهاء، وألا يتدخل جلالتهما فبأية صورة، في شأن هذه الصدقات أو يأمران بأخذها في أي وقت.
20. وأنه لا يؤخذ أي مسلم بذنب ارتكبه شخص آخر، فلا يؤخذ والد بذنب ولده أو ولد بذنب والده، أو أخ بذنب أخ، أو ولد عم بذنب ولد عم، ولا يعاقب إلا من ارتكب الجرم.
21. وأنه إذا كان مسلم أسيرا و فر إلى مدينة غرناطة أو البيازين أو أراضيهما أو غيرها، فإنه يعتبر حرا، ولا يسمح ولا يسمح لأحد بمطارده إلا إن كان من العبيد أو من الحرائر.
22. وألا يدفع السلمون من الضرائب أكثر مما كانوا يدفعون لملفهم المسلمين.
23. وأنه يحق لسكان غرناطة والبيازين والبشرات وغيرها، ممن عبروا إلى المغرب، أن يعودوا خلال الأعوام الثلاثة التالية، وأن يتمتعوا بكل ما يحتويه هذا الاتفاق.
24. كما لا يحق لمن عبر منهم إلى المغرب، ولم ترضه الإقامة هنالك، أن يعود خلال الأعوام الثلاثة، وأن يتمتع بكل ما في الاتفاق.
25. وأنه يحق لتجار غرناطة وأرباضها والبشرات وسائر أراضيهما، أن يتعاملوا في سلعهم آمنين، عابرين إلى المغرب وعائدين، كما يحق لهم دخول سائر النواحي التابعة لجلالتهما، وألا يدفعوا من الضرائب سوى التي يدفعها النصارى.
26. وأنه إذا كان أحد من النصارى -ذكر أو أنثى- اعتنق الإسلام فلا يحق لإنسان أن يهدده أو يؤذيه بأية صورة، ومن فعل ذلك يعاب.

27. وأنه إذا كان مسلم قد تزوج بنصرانية واعتنقت الإسلام، فلا ترغم العودة إلى النصرانية، بل تسأل في ذلك أمام المسلمين والنصارى، وألا يرغم أولاد "الروميات" ذكورا أو إناثا، على اعتناق النصرانية.

28. وأنه لا يرغم مسلم أو مسلمة قط على اعتناق النصرانية.

29. وأنه إذا شاءت مسلمة متزوجة أو أرملة أو بكر اعتناق النصرانية باعتناق بدافع الحب، فلا يقبل ذلك منها، حتى تسأل وتوعظ وفقا للقانون. وإذا كانت قد استولت خلسة على حلي أو غيرها من دار أهلها أو أي شيء آخر فإنها ترد لصاحبها، وتتخذ الإجراءات ضد المسؤول.

30. وألا يطب الملكان أو يسمحا بأن يطب إلى الملك المذكور مولاي أبي عبد الله أو خدمه أو أحد من أهل غرناطة أو البيازين أو أرباضهما والبشرات وغيرهما، من الداخلة في هذا العهد، بأن يردوا ما أخذوه أيام الحرب من النصارى أو المدجنين، من الخيل أو الماشية أو الثياب أو الفضة أو الذهب أو غيرها، أو من الأشياء الموروثة، ولا يحق لأحد يعلم بشيء من ذلك أن يطلب به.

31. وألا يطب إلى أي مسلم، يكون قد هدد أو جرح أو قتل أسيرا أو أسيره نصرانية، ليس أو ليست في حوزته، رده أو ردها الآن أو فيما بعد.

32. وألا يدفع عن الأملاك والأرضي السلطانية، بعد انتهاء السنوات الثلاث الحرة، من الضرائب إلا وفقا لقيمتها، وعلى مثل الأراضي العادية.

33. وأن يطبق ذلك أيضا على أملاك الفرسان والقادة الملمين، فلا يدفع عنها أكثر مما يدفع عن الأملاك العادية.

34. وأن يتمتع اليهود من أهل غرناطة والبيازين وأرباضهما، والأراضي التابعة لها، بما في هذا العهد من امتيازات، وأن يمح لهم بالعبور إلى الغرب خلال ثلاثة أشهر، تبدأ من يوم 18 ديسمبر.

35. وأن يكون الحكام والقواد والقضاة، الذين يعينون لغرناطة والبيازين والأراضي التابعة لهما، ممن يعاملون الناس بالكرامة والحسنى، ويحافظون على الامتيازات الممنوحة، فإذا أحل أحدهم بالواجب عوقب وأحل مكانه من يتصرف بالحق.

36. وأنه لا يحق للملكين أو لأعقابهما إلى الأبد، أن يسألوا الملك المذكور أبي عبد الله، أو أحدا من المسلمين المذكورين بأية صورة، عن أي شيء يكونوا قد عملوه، حتى حلول يوم تسليم الحمراء المتكورة وهي فترة الستين يوما المنصوص عليها.

37. وأنه لا يولى عليهم أحد من الفرسان أو القادة أو الخدم، الذين كانوا تابعين لملك وادي آش.

38. وأنه إذا وقع نزاع بين نصراني أو نصرانية ومسلم أو مسلمة، فإنه ينظر أمام قاضي نصراني وآخر مسلم، حتى لا ينظلم أحد مما يقضى به.

39. وأن يقوم الملك بالإفراج عن الأسرى المسلمين ذكورا وإناثا، من أهل غرناطة والبياض وأرباضهما وأراضيها، إفراجا حل دون أية نفقة أو من فدية أو غيرها، وأن يكون الإفراج عن من هؤلاء الأسرى بالأندلس في ظرف خمسة أشهر التالية، وأما الأسرى الذين بقشتالة فيفرج عنهم خلال الثمانية أشهر التالية، وبعد يومين من تسليم الأسرى النصراني لجلالتهما يفح عن مائتين من الأسرى المسلمين، منهم مائة من الرهائن ومائة أخرى.

40. وأنه إذا دخلت، أية محلة من نواحي البشرات في طاعة جلالتهما، فإنها يجب أن تسلم إليهما كل الأسرى النصراني ذكورا أو إناثا، في ظرف خمسة عشر يوما، من تاريخ الانضمام وذلك دون أية نفقة.

41. وأن تعطى الضمانات للسفن الغربية الراسية الآن في مملكة غرناطة، لكي تسافر في أمان على ألا تكون حاملة أي أسير نصراني، وألا يحدث لها أحد ضررا أو إتلافا، وألا يؤخذ منها شيء، ولا ضمان من أن تحمل منها أسرى من النصراني، ويحق لجلالتهما إرسال من يقوم بتفتيشها لذلك الغرض.

42. وألا يدعي أو يؤخذ أحد من المسلمين للحرب رغم إرادته، وإذا شاء جلالتهما استدعاء الفرسان، الذين لهم خيول وسلاح، للعمل في نواحي الأندلس فيجب أن يدفع لهم الأجر في يوم الرحيل حتى يوم العودة.

43. وأنه يجب على كل من عليه دين أو تعهد أن يؤديه لصاحب الحق، ولا يحق لهم التحرر من هذه الحقوق.

44. وأن يكون المأمورون القضائيون الذين يعينون المحاكم المسلمين، مسلمين الآن وإلى الأبد.

45. وأن يكون المتولون لوظائف الحسبة الخاصة بالمسلمين أيضا مسلمين، وألا يتولاها نصراني الآن وفي أي وقت.

46. وأن يقوم المالكان في اليوم الذي تسلم إليهما فيه الحمراء والحصن والأبواب كما تقدم، بإصدار مراسيم الامتيازات، للملك أبي عبد الله والمدينة المذكورة، ممهورة بتوقيعها، ومختومة بخاتمتها الرصاص ذي الأهداب الحديدية، وأن يصدق عليها ولدهما الأمر، والكاردينال المحرم دسبينا، ورؤساء الهيئات الدينية، والعظماء والدوقات والمركزيون والكونتات والرؤساء، من تكون ثابتة وصحيحة الآن، وفي كل وقت (56 ثافرا) (43 سيمانقا)³.

³ - ينظر: نصر الله سعدون، المرح السابق، ص - ص: 396 - 406.

قائمة المصادر

والمراجع

أولاً: المصادر:

القرآن الكريم.

1. ابن أبي الزرع الفاسي (أبو العباس أحمد)، الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب ومدينة فاس، تح: عبد الوهاب بن منصور، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، 1972.
2. الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية، دار المنصور للطباعة والنشر، الرباط، 1972، ط2.
3. ابن الأبار، أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي، الحلة السرياء، تح: حسين مؤنس، دار المعارف، ج2، 1985، ط2.
4. ابن الأثير، أبو الحسن ابن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد (ت 630هـ/1232م)، الكامل في تاريخ (ثلاثة عشر جزءاً)، مر: محمد يوسف الدقاق، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، مج: 03، 1987، ط7.
5. ابن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، تح: محمد عبد الله عنان، مج2، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1975، ط2.
6. أعمال الأعلام في من بويغ قبل الاحتلام من ملوك الإسلام، تح: ليفي بروفنسال، دار المكشوف، بيروت، لبنان، 1956، ط8، ج2.
7. كناسة الدكان بعد انتقال السكان، تح: محمد شانة مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 2003، ط1.
8. رقم الحلل في نظم الدول، المطبعة العمومية، تونس، 1316.
9. أوصاف الناس في التواريخ والصلوات، تح: محمد كمال شبانه، اللجنة المشتركة لنشر التراث الإسلامي بين المملكة العربية ودول الإمارات المتحدة، د.ت، د.ط.، معيار الاختيار في ذكر المعاهدة والديار، تح: محمد كمال شبانه، مصر، مكتبة الثقافة الدينية، 2002، د.ط.
10. اللمحة البدرية في الدولة النصرية، دار الأفاق الجديدة، 1978، ط2.

11. معيار الاختيار في ذكر المعاهد والديار، تح: محمد كمال شبانة، مكتبة الثقافة الدينية، مصر، 2002، د.ط.
12. ابن الكردبوس، تاريخ الأندلس، دراسة وتحقيق أحمد مختار العبادي، المعهد الوطني للدراسات الإسلامية، مدريد، 1971.
13. ابن بسام (أبو الحسن الشنتري)، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة القسم الرابع، مج1، القاهرة، 1945، د.ط.
14. ابن بلكين، الأمير عبد الله بن بلكين بن باديس بن زيري الصنهاجي أمير غرناطة (496هـ-483هـ/1076م-1090م)، التبيان عن الحادثة الكائنة بدولة بني زيري في غرناطة، أعاد نشره علي عمر معتمدا على تحقيق ليفي بروفنسال، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 1427هـ/2006م، ط1.
15. ابن خلدون عبد الرحمن، أبو زيد عبد الرحمن بن محمد (ت 808هـ/1405م) العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر دار الكتب العلمية، بيروت، 1992/1413، ط1، (7 أجزاء)، ج4، ج6، ج7.
16. ابن خلدون يحيى (ت 780هـ/1378م) بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، تح: عبد الحميد حاجيات، ج1، المكتبة الوطنية للنشر، الجزائر، 1980، د.ط.
17. ابن خلكان (شمس الدين أبو العباس أحمد بن محمد)، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، مطبعة الميمنية، مصر، 1310هـ، د.ط، ج5.
18. ابن عذارى المراكشي (ت 695هـ/1295م)، بيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تح: إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، لبنان، ج4، 1983، ط3.
19. الإدريسي، أبو عبد الله، محمد بن محمد الحسيني - ت 560هـ/1164م، نزهة المشتاق في اختراق الأفاق، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 1994، د.ط، ج2.
20. بن الأحمر، نثير الجمان في شعر من نظمي وأيام الزمان، تح محمد رضوان الداية، مؤسسة الرسالة، الجزائر، 1987، ط2.

21. بن الشماع، أبو عبد الله محمد بن أحمد، الأدلة البيئية النورانية في مفاخر الدولة الحفصية، تح وتق: الطاهر بن محمد المعموري، دار العربية للكتاب، تونس، 1984، د.ط.
22. بن مرزوق محمد التلمساني، المسند الصحيح الحسن في مآثر مولانا أبي الحسن، تح: ماريا خيسوس بنغر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1401هـ/1981م، د.ط.
23. بن مريم الشريف، البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، نشره: عبد الرحمان طالب، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1986، د.ط.
24. الحموي شهاب الدين ياقوت بن عبد الله (ت 626هـ/1228م)، معجم البلدان، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط 1، 1997، ج 2.
25. الحميري أبو عبد الله محمد بن عبد المنعم (ت 900هـ/1494م)، الروض المعطار في خبر الأقطار، تح: إحسان عباس، مكتبة لبنان، بيروت، 1915، د. ط.
26. الذهبي، الإمام شمس الدين محمد بن أحمد الذهبي (ت 748هـ/1348م)، تح: شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1402هـ، ط 2.
27. الزركشي، أبو عبد الله محمد بن إبراهيم (ت 894هـ/1488م)، تاريخ دولتي الموحدية والحفصية، تح وتع: محمد ماضود، مكتبة العتيقة، جامع الزيتونة، تونس، 1289، ط 2.
28. الصفدي، الوافي بالوفيات، تح: أحمد الأرنؤوط، ج 28، دار الإحياء للتراث العربي، بيروت، لبنان، 1420هـ/2000م، د.ط.
29. القلقشندي، صبح الأعشى، ج 5، المطبعة الأميرية، القاهرة، 1915، د.ط.
30. المراكشي عبد الواحد، محي الدين عبد الواحد بن علي التميمي (ت 647هـ/1249م)، معجب في تلخيص أخبار المغرب، شرحه واعتنى به، صلاح الدين الهواري، المكتبة العصرية، بيروت، 1426هـ/2006م، ط 1.
31. المقرئ (شهاب الدين) أبو العباس أحمد بن محمد التلمساني (ت 1042هـ/1632م)، نفع طيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب، تح: محمد محي الدين عبد الحميد، القاهرة، 1949، ج 6، ط 1.

32. الأزهار الرياض في أخبار القاضي عياض، تح: مصطفى سقى، إبراهيم الأبيارى، عبد الحفيظ شلي، مطبعة نخبة التأليف والترجمة والنشر، مصر، 1939، د.ط، ج2.
33. مؤلف مجهول، الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، تح: سهيل زكار عبد القادر زمامة، دار الرشاد الحديثة، دار البيضاء، 1399هـ/1979م، ط1.
34. مؤلف مجهول، كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار" وصف مكة والمدينة ومصر وبلاد المغرب"، نر وتع: سعد زغلول عبد الحميد، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، د.ت، د.ط.
35. مؤلف مجهول، نبذة العصر في أخبار ملوك بني نصر، تع: الفريد البستاني، د.ب، مكتبة الثقافية الدينية، 2001، ط1.

ثانيا: المراجع:

1- المراجع العربية الأصلية:

1. ابن منصور عبد الوهاب، قبائل المغرب، مطبعة الملكية، الرباط، 1968، د.ط.
2. أبو الخليل شوقي، علماء الأندلس إبداعاتهم المتميزة وأثرها في النهضة الأوروبية، دار الفكر، دمشق، بيروت، 1979، د.ط.
3. أحمد محمود، قيام دولة المرابطين، القاهرة، 1957، ط1، د.م.
4. أرسلان شكيب، خلاصة تاريخ الأندلس، منشورات دار المكتبية الحياة، بيروت، 1983، د.ط.
5. البشاوي عادل سعيد، الأندلسيين مواركة، مطالع أنترناشيونال، مصر، 1983، د.ط.
6. جيوشي سلمة الخضراء، الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس، مركز الدراسات الوحدة العربية، 1998، ط1، ج1.
7. حتملة محمد عبده، الأندلس التاريخ والحضارة ومحنة، دراسة شاملة، دائرة المكتبة الوطنية، عمان الأردن، 1420هـ/2000م، د.ط.

8. الحجى عبد الرحمن علي، التاريخ الأندلسي من الفتح الإسلامي حتى سقوط غرناطة، دمشق، بيروت، 1407هـ/1987م، د.ط.
9. حركات إبراهيم، المغرب عبر التاريخ، دار البيضاء، دار الرشاد الحديثة، 1984، ط1، ج1.
10. الحريري محمد عيسى، تاريخ المغرب الإسلامي والأندلس في العصر المريني، دار القلم للنشر والتوزيع، الكويت، 1408هـ/1987م، ط2.
11. الحسن عيسى، تاريخ العرب من بداية الحروب الصليبية إلى نهاية الدولة العثمانية، دار الأهلية للنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، 2011، ط2.
12. حسين محمود حمدي عبد المنعم، التاريخ السياسي والحضاري للمغرب والأندلس في عصر المرابطين، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 1995، د.ط.
13. حومد أسعد، محنة العرب في الأندلس، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1988، ط2.
14. خطاب محمود شيت، قادة فتح الأندلس، المجلد الثاني، مؤسسة علوم القرآن، منار للنشر والتوزيع، دمشق، بيروت، 1424-2004، ط1.
15. الخليفة محمد حامد، انتصارات يوسف بن تاشفين (1009/400-500هـ/1106م) بطل الزلافة وقائد المرابطين موحد المغرب ومنقذ الأندلس من الصليبيين، مكتبة الصحابة، مكتبة التابعين، القاهرة، 1465-2004، ط1.
16. الذنون عبد الحكيم، آفاق غرناطة، بحث في التاريخ السياسي والحضاري العربي، سوريا، دار المعرفة للنشر والتوزيع، 1988، ط1.
17. الزيدي مفيد، تاريخ الحروب الصليبية، دار أسامة للنشر والتوزيع، الأردن، عمان، 2004، ط2.
18. السرجاني راغب، قصة الأندلس من الفتح إلى السقوط، مؤسسة إقرأ للنشر والتوزيع والترجمة، القاهرة، 2011، ط1، ج1.

19. السمراي خليل إبراهيم وآخرون، تاريخ العرب وحضارتهم في الأندلس، لبنان، دار المدار الإسلامي، 2004، ط1.
20. السيد عبد العزيز سالم، تاريخ المغرب في العصر الإسلامي، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، 2011، د.ط.
21. تاريخ مدينة المرية قاعدة أسطول الأندلس، ط1، بيروت، 1969، ط1.
22. بحوث مشرقية ومغربية في التاريخ والحضارة الإسلامية، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، 2009، د.ط.
23. السيد محمود، تاريخ دولتي المرابطين والموحدين، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، 2004، د.ط.
24. شبارو عصام محمد، الأندلس من الفتح العربي المرصود إلى الفردوس المفقود (91-897هـ/710-1492م)، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان، 2002، ط1.
25. الشطشاط علي حسن، نهاية الوجود العربي في الأندلس، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، 2001، د.ط.
26. شوقي أبو الخليل، العقاب، دار الفكر، دمشق، بيروت، 1979، د. ط.
27. الصلابي علي محمد، الجوهر الثمين بمعرفة دولة المرابطين، دار التوزيع والنشر الإسلامية، مصر، القاهرة، 2004م/1424هـ، ط1.
28. تاريخ دولتي المرابطين والموحدين في شمال إفريقيا، دار المعرفة، بيروت، لبنان، 2009/1430، ط3.
29. الطاهر أحمد المكي، دراسات أندلسية في الأدب والتاريخ والفلسفة، دار المعارف، القاهرة، 1987م، ط3.
30. طه ذنون عبد الواحد، المقاومة العربية الإسلامية في الأندلس بعد سقوط غرناطة، دار المدار الإسلامي، ليبيا، 2004، ط1.

31. العبادي أحمد مختار، في تاريخ المغرب والأندلس، منشأة المعارف، الإسكندرية، 2000، د.ط.
32. صورة من حياة الحروب والجهاد في الأندلس، منشأة المعارف، الإسكندرية، 2000م، د.ط.
33. عبد الحليم رجب محمد، العلاقات بين الأندلس الإسلامية وإسبانيا النصرانية في عصر بني أمية وملوك الطوائف، دار الكتب المصرية، ودار الكتاب اللبناني، بيروت، د.س، د.ط،
34. عبد الفتاح عاشور سعيد، تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان، 2003م/1424هـ، ط2.
35. عبد المحسن طه رمضان، الحروب الصليبية في الأندلس، مكتبة الأنبار المصرية، القاهرة، 2001، د.ط.
36. عطيات أحمد محمد، الأندلس من السقوط إلى محاكم التفتيش، دار الأمواج للنشر والتوزيع، عمان، 2015، ط1.
37. عنان محمد عبد الله ، دولة الإسلام في الأندلس، العصر الثاني، دول الطوائف منذ قيامها حتى الفتح المرابطي، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1417هـ/1997م، ط4.
38. عويس عبد الحليم، التكاثر المادي وأثره في سقوط الأندلس، دار الصحوة للنشر والتوزيع، مصر، 1994، ط1.
39. الغنאי عقيلة، قيام دولة الموحدين، جامعة قاريونس بنغازي، ليبيا، 1988، 2008، ط1.
40. فرحات شكري يوسف، غرناطة في ظل بني الأحمر، (دراسات حضارية)، دار الجيل، بيروت، 1413هـ/1993م، ط1.
41. الفقي عصام الدين عبد الرؤوف، تاريخ المغرب والأندلس، مكتبة نهضة الشرق، مصر، د.ت، ط3.
42. فيلاي عبد العزيز، تلمسان في العهد الزياني، موفم للنشر والتوزيع، الجزائر، 2002، د.ط، ج1.

43. قاسم عبده قاسم، ماهية الحروب الصليبية الإيديولوجية الدوافع النتائج، عين الدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، د.م، 2004، د.ط.
44. الكتاني علي المنتصر، انبعث الإسلام في الأندلس، دار الكتب العلمية، لبنان، 2005، ط1.
45. المطوي محمد العمروسي، الحروب الصليبية في المشرق والمغرب، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط2.
46. المنوني محمد وآخرون، التاريخ الأندلسي من خلال النصوص، شركة للنشر والتوزيع للمدارس، المغرب، 1991، ط1.
47. مؤنس حسين، معالم تاريخ المغرب والأندلس، مر: عادل أبو المعاصي ومحمد دياب، دار الرشاد، القاهرة، 1997، ط1.
48. رحلة الأندلس من بداية المرسى إلى نهاية العددين، الشركة العربية للنشر والتوزيع، القاهرة، 1963.
49. الميلي مبارك بن محمد، تاريخ الجزائر في القديم والحديث، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، د.ت، د.ط، ج2.
50. الناصري أبو العباس أحمد بن خالد، الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى الدولتان المرابطية والموحدية، تح: جعفر الناصري ومحمد الناصري، دار الكتاب، الدار البيضاء، الرباط، 1997، د. ط، ج 2.
51. نصر الله سعدون عباس، دولة المرابطين في المغرب والأندلس (عهد يوسف بن تاشفين)، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، 1405هـ/1985م، ط 1.
52. يجياوي جمال، سقوط غرناطة مآساة لونيس 1492-1690م، وزارة الشؤون الدينية والأوقاف، الجزائر، 2011، ط 1.
53. يوسف جوزيف نسيم، العرب والروم واللاتين في الحرب الصليبية الأولى، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، 1981، ط1-2-3.

2- المراجع العربية المترجمة:

1. أشباخ يوسف، تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين، ترجمه وعلق عليه محمد عبد الله عنان، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1417هـ/1996م، ط2، ج1.
2. بروفنسال ليفي، ألفونسو السادس والاستيلاء على طليطلة سنة 1085م، ضمن كتابه الإسلام في المغرب والأندلس، ترجمة: السيد محمود عبد العزيز سالم، د.م، د.ت، د.ط.
3. الدوزي رينهارت، تاريخ مسلمي إسبانيا، تر: حسن حبشي، دار المعارف، د.م، 1963، ج3.
4. واشنطن ارينفنغ، أخبار سقوط غرناطة، تر: هاني يحي نصرى، مؤسسة الانتشار العربي، بيروت، لبنان، 2000، ط1.
5. كارل بروكلمان، تاريخ الشعوب الإسلامية، تر: أمين ومنير البعلبكي، دار العلم للملايين، لبنان، 1968، ط5.

ثالثا: الرسائل وأطروحات الجامعية:

1. شقدان عبد الرزاق، تلمسان في العهد الزياني، رسالة ماجستير جامعة النجاح الوطنية، كلية الدراسات العملية، 1422-2002.
2. عواجي عبد القهار، علاقات مملكة غرناطة مع الدول الإسلامية، رسالة دكتوراه، جامعة أم القرى، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية.

رابعا: الدوريات والمجلات:

1. بن شنهو عبد الحميد، أبو عبد الله آخر ملوك غرناطة، دفين تلمسان أم فاس، مجلة الأصالة، ع25، الجزائر، 1971، د.ط.

2. عنان محمد عبد الله، موقف القسطنطينية وباقي العالم الإسلامي من سقوط الأندلس، مجلة الأصالة، تلمسان منشورات وزارة الشؤون الدينية والأوقاف، ع24، 2001، مج12.
3. مصطفى شاکر، الأندلس في التاريخ، منشورات وزارة الثقافة، سوريا، 1990، د.ط.

خامسا: القواميس:

1. ابن منظور، لسان العرب، دار المعارف، القاهرة، د.ت، د.ط، ج1.

فهرس المحتويات

شكر وعران

إهداء

قائمة المختصرات

مقدمة أ

المدخل: مفهوم حركة الاسترداد ودوافعها

07 مفهوم حركة الاسترداد

07 نهاية الدولة الأموية وظهور ملوك الطوائف

11 دوافع حرب الاسترداد

الفصل الأول: مراحل حروب الاسترداد

15 تمهيد

15 المبحث الأول: استنجد الأندلس بالمرابطين

15 1- وضع الأندلس قبل تدخل المرابطين

21 2- معركة الزلاقة وآثارها

21 2-1- جواز المرابطين

23 2-2- أحداث معركة زلاقة

25 2-3- نتائج وانعكاسات معركة الزلاقة

27 3- معركة الليط وآثارها

29 3-1- نتائج معركة حصن ليط

30 4- زوال ملوك الطوائف

34 المبحث الثاني: استنجد الأندلس بالموحدين

34 1- الأندلس في ظل الموحدين

37 2- معركة الأرك

- 3- نتائج المعركة 39
- 4- معركة حصن العقاب وآثارها 41
- 4-1- حصار قلعة رباح 43
- 4-2 نتائج معركة حصن العقاب 45

الفصل الثاني: حروب الاسترداد في عهد بني الأحمر

- تمهيد 48
- المبحث الأول: الأوضاع السياسية لدولة بني الأحمر 48
- 1- صراع بني الأحمر مع بني هود 48
- 2- تأسيس دولة بني الأحمر 50
- 3- نبذة عن الممالك النصرانية 52
- 3-1- مملكة قشتالة 53
- 3-2- مملكة آراغون: (آراجون) 54
- 3-3- اتحاد المملكتين (الزواج السياسي) 55
- المبحث الثاني: رد فعل دول المغرب الإسلامي من حروب الاسترداد 57
- 1- موقف بني مرين بالمغرب الأقصى 57
- 1-1- موقعة الدونونية 58
- 2- موقف بني زيان بالمغرب الأوسط 67
- 3- موقف بيني حفص بالمغرب الأدنى 72

الفصل الثالث: نتائج حرب الاسترداد

- تمهيد 76
- المبحث الأول: سقوط غرناطة وأسبابها 76
- 1 - الأسباب الداخلية 76

76.....	1-1- الصراع حول السلطة
79.....	1-2- نفوذ الوزراء ودورهم في الصراع
84.....	2- الأسباب الخارجية
84.....	2-1- الصراع مع الممالك النصرانية
86.....	2-2- صراع مملكة بني نصر مع المرينين
88.....	المبحث الثاني: نهاية الحكم الإسلامي والوجود السياسي بالأندلس
88.....	1- حصار مملكة غرناطة
90.....	2- تسليم الملكة (المدينة)
94.....	3- نتائج سقوط غرناطة
99.....	خاتمة
103.....	الملاحق
113.....	قائمة المصادر والمراجع